الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بسابقتها فهي تبدأ بالقول «إذ» المبدل من القول «وإذ غدوت» فالأحداث تتتابع فى ظرفٍ واحدٍ ومناسبةٍ واحدة . إنّه فى الوقت الّذى وصل فيه المصطفى ﷺ بطل الأبطال إلى ميدان المعركة فى سفح جبل أحد ، والمسافة بين المسجد النّبويّ الشّريف وبين جبل أحد قصيرة جدّاً ، كان ثمّة حوارٌ ساخن بين عبدالله بن أبيّ ابن سلول شيخ المنافقين الّذى رجع من الشّوط ـــ بين المدينة وأحد ـــ بثلث الجيش وبين عبدالله بن عمرو بن حرام السُّلميّ الخزرجيّ بقصد حمل ابن أبيّ على العدول عن تخلّيه عن نُصْرة المصطفى ﷺ والمؤمنين بينما يريد ابن سلول جاهداً أن يحمل بنى سلمة وكذلك أن يحمل بنى حارثة من الأوس على متابعته والرّجوع معه والتّخلّى عن نصرة المصطفى صلّى الله عليه وسلم . لقد كاد يدبّ إلى نفوس هاتين الطّائفتين الوَهَن وإلى قلوبهم الجبن والخور بسبب كلام شيخ المنافقين لهم وفتّه فى عضدهم . ولمّا كان الجبن الّذى دبّ والوهن الّذى تسرّب ليس بدافع النّفاق وليس بدافع الرّغبة فى التخلّى عن المصطفى ﷺ وعن المؤمنين ، ولمّا كان ثمّة صراعٌ عنيف فى نفوس القوم بين أداء الواجب بدافع الإيمان واللّحاق بالمصطفى ﷺ والمؤمنين ، وبين الجبن الّذى كاد يتسرّب إلى قلوبهم والوهن الّذى كاد يتسرّب إلى نفوسهم بفعل موقف ابن سلول وقوله ، ولمّا كان إيمان القوم هو الأقوى فإنّ ربّ العزّة ربّ المستضْعَفين قد تولّاهم ودفع عنهم ماكاد يتمكّن منهم من جبنٍ ووهن وكلأهم بعين عنايته ورعايته فتركوا ابن أبيّ ابن سلول ومن معه من المنافقين وشأنهم ولحقوا بالمصطفى ﷺ ونالوا شرف الجهاد فى سبيل الله تعالى وثواب المجاهدين والشّهداء .

والآية الكريمة تلقى علينا نحن المسلمين درساً عظيماً فى تذييلها : «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» إنّ هاتين الطّائفتين اللّتين كادتا تفشلان كانتا متوكّلتين على الله تعالى فعصمهما الله سبحانه وتعالى من الزّلل وسدّد خطاهما وهداهما الصّراط المستقيم . إنّ على كلّ مسلمٍ أن يتوكّل على الله سبحانه وتعالى وسيتولّاه جلّ وعلا بعنايته ورعايته .

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

بدر : مكان بين مكّة والمدينة المنورة تعرف ببئر ماء منسوبةٍ إلى رجلٍ احتفرها يسمّى بدراً (١) التقى عليه نبيّ الله ﷺ والمشركون وكان أوّل قتال قاتله نبيّ الله ﷺ (٢) والمسافة بين بدرٍ وبين المدينة المنوّرة زهاء مائةٍ وخمسين كيلو مترا .

وأنتم أذلّة : جمع ذليل كما الأعزّة جمع عزيز والألبّة جمع لبيب (٣) يقول : وأنتم أقلّ عدداً وأضعف قوّة (٤)كانوا ثلاثمائة نفس وبضعة عشر وعدوّهم مابين التّسعمائة إلى الألف (٥)

كان درس أحد قاسياً على المؤمنين ، وما أصابهم كان بإذن الله تعالى بسبب تخلّيهم عن مركزهم فى الجبل ، وقد استشهد من المؤمنين سبعون ولمّا كان النّصر أو الهزيمة بإذن الله تعالى ، ولمّا كان ربّ العزّة قد نصر المؤمنين فى أول لقاءٍ لهم بالكفّار فى بدرٍ نصراً مؤزّراً فقتلوا من المشركين سبعين وأسروا منهم سبعين ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى (٦) «أولمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إنّ الله على كلّ شيٍّ قدير» فإنّ ربّ العزّة رحمةً منه جلّ وعلا بعباده المؤمنين يذكّرهم بفضله تعالى عليهم يوم بدر إذ نصرهم وهم أذلّة بسبب قلّة عددهم وعدّتهم على الكافرين الّذين يفوقونهم فى العدد والعدّة .

إنّ المطلوب من المؤمنين الّذين ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالهزيمة فى أحد أن يذكروا فضل الله تعالى عليهم بالنّصر فى بدرٍ وهم أذلّة ، بأن يشكروه جلّ وعلا على نعمه وآلائه . ويكون شكر الله تعالى بأن يتّقوه جلّ وعلا بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . وبما أنّ الإيمان شطران ، شطرٌ شكرٌ وشطرٌ صبر ، وكان الشكر قد تجلّى من المؤمنين فى تقواهم الله تعالى الّذى نصرهم فى بدرٍ وهم أذلّة ، فالمطلوب من المؤمنين أن يتجلّى الشّطر الثّاني من شطري الإيمان فى صبرهم على ابتلاء الله تعالى لهم فى أحد . إنّ الصّبر جزءٌ من الإيمان وجزءٌ من التّقوى .

إنّكم أيّها المؤمنون بتقواكم الله تعالى لعلّكم تقومون بما يجب عليكم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه وفى مقدمة ذلك نصره جلّ وعلا لكم فى يوم بدرٍ يوم الفرقان .

(١) تفسير ابن كثير ١ /٤٠١ وتفسير الطّبريّ ٤ /٤٩ (٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٩ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٩
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٤٩ (٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٩
(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٩ (٦) سورة آل عمران ١٦٥

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

هاتان الآيتان الكريمتان ذواتا علاقةٍ بالآية الكريمة من سورة الأنفال .

قال تعالى (١) : «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين» ففي يوم بدرٍ يوم الفرقان استغاث المؤمنون بربّهم جلّ وعلا وطلبوا منه تعالى العون والنّصر فاستجاب لهم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة يردف بعضهم بعضاً متتابعين . وكان هذا هو الوعد الأوّل . وقد تلاه الوعد بالإمداد بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين ، ثمّ ارتفع الوعد إلى خمسة آلاف . وإلى هذين الوعدين أشارت الآيتان الكريمتان من سورة آل عمران .

بلى : بلى يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين .

من فورهم : من وقتهم .

مسوّمين : مُعْلَمين (٢) والسّيما : العلامة (٣) عن هشام بن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدرٍ على خيلٍ بلق عليهم عمائم صفر ، وكان على الزّبير يومئذٍ عمامة صفراء (٤) عن عبّاد بن حمزه قال : نزلت الملائكة فى سيما الزّبير (٥) .

(١) سورة الأنفال ٩
(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٩
(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٩ وتفسير الطّبريّ ٤ /٥٥
(٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٤
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٤

بعد أن قرّرت الآية الكريمة السّابقة الذّلّة الّتى كان فيها المؤمنون يوم بدرٍ بسبب قلّة عددهم وعدّتهم ، وبعد أن بيّنت فضل الله تعالى على المؤمنين وواجب المؤمنين تجاه فضل الله تعالى ونعمته عليهم بأن يتّقوه جلّ وعلا لعلّهم يشكرون ، بيّنت أولى الآيتين الكريمتين جانباً آخر جديداً من فضل الله تعالى ونعمته يوم بدرٍ على المؤمنين ، فقد ارتفع الوعد من الله تعالى بالإمداد من الملائكة إلى ثلاثة آلاف وكان ذلك على لسانه ﷺ الّذى طرح على المؤمنين سؤالًا تقريريّاً : ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين من السّماوات العُلى ؟ . والجواب بطبيعة الحال معروف . وقد نصّت الآية الكريمة التّالية الّتى تضمّنت هي الأخرى جانباً آخر جديداً من فضل الله تعالى على لسان المصطفى ﷺ بأن يرتفع الإمداد إلى خمسة آلافٍ من الملائكة معلمين «بلى» والمعنى : بلى يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين . وقد اقترن بالوعد الأخير شروط أن يصبر المؤمنون فى جهادهم أعداء الله تعالى وأن يتّقوا الله سبحانه بفعل الأوامر واجتناب النّواهي وأن يأتى أعداء الله تعالى لقتال المؤمنين من وقتهم هذا . عن قتادة قوله : ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين ، أمدّوا بألفٍ ثمّ صاروا ثلاثة آلافٍ ثمّ صاروا خمسة آلاف . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين وذلك يوم بدرٍ أمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة (١)

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

وماجعل الله تعالى وعده بإنزال الملائكة مدداً منه جلّ وعلا لكم وعوناً إلّا بشارةً لكم وتطميناً لقلوبكم وتطييباً ، كي يزول عنكم الخوف بسبب كثرة عدوّكم عدداً وعدّة ، وكي تهدأ أنفسكم وتستقرّ وتستبشر بفرج الله تعالى وتأييده ونصره . إنّ الله سبحانه وتعالى وعدكم النّصر رغم قلّة عددكم وسلاحكم ، وهاهي ذى الملائكة تقاتل معكم فى بدر ، وهاهو ذا وعد الله تعالى لكم بالنّصر يتحقّق ، لأنّ النّصر لا يكون إلّا من عند الله تعالى العزيز فى ملكه فلا يفوته مشركو قريش ولا سواهم ، الحكيم فى صنعه وقد قضى بأن ينصركم فى بدرٍ وأنتم أذلّة كي تكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الّذين كفروا السّفلى . عليكم أيها المؤمنون فى كلّ أحوالكم أن تتوكّلوا عليّ وتثقوا بي وتتقوني فما النّصر إلّا من عندى أنا وحدى لا إله غيرى ولا معبود سواي .

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٥١

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

طرفاً : طائفةً ونفراً(١)

أويكبتهم : أو يخزيهم بالخيبة ممّا رجوا من الظّفر بكم(٢)

لقد نصركم الله تعالى ببدرٍ ليقطع طرفاً من الّذين كفروا ويهلك طائفةً من الّذين جحدوا وحدانيّة الله تعالى ونبوّة محمّد ﷺ ، ويستأصل شأفة نفرٍ من زعماء الشّرك وأئمّة الضّلال والعناد ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، بأن يخزي بالخيبة الّذين نجوا من الهلاك وسلموا من القتل وهم الّذين كانوا يحلمون بالنّصر ويرجون الظّفر على المؤمنين . لقد قتل الله سبحانه وتعالى فى بدرٍ طائفةً من رؤساء الكفر وصناديد قريش وأذلّ معاطس من سلم منهم من القتل والأسر فانقلبوا خائبين ورجعوا حسيرين .

إنّ هذا ماحدث لكفّار قريشٍ فى بدر ، فعلى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أن يتّقوا الله تعالى لعلّهم يشكرونه جلّ وعلا على نعمه وآلائه . إنّ الشّكر على نعم الله تعالى ، وفى مقدمتها النّصر فى بدر نصف الإيمان . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتعرض للنّصف الثّاني من الإيمان ألا وهو الصّبر ، وقد عرفنا أنّ الإيمان نصفان ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر .

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

سبب النزول :ـ

«قال البخاريّ حدّثنا حبّان بن موسى أنبأنا عبدالله أنبأنا معمر عن الزّهريّ حدّثنى سالم عن أبيه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الرّكوع فى الرّكعة الثّانية من الفجر : اللّهمّ العن فلاناً وفلاناً بعد مايقول : سمع الله لمن حمده ، ربّنا ولك الحمد . فأنزل الله تعالى : ليس لك من الأمر شيٌّ الآية . وهكذا رواه النّسائى من حديث عبدالله بن المبارك وقال الإمام أحمد .... عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللّهمّ العن فلاناً وفلاناً ، اللّهم العن الحارث بن هشام ، اللّهم العن سهيل بن عمرو ، اللّهمّ

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٦

(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٦

العن صفوان بن أميّة فنزلت هذه الآية .... وقال البخاريّ · قال حميد وثابت عن مالك بن أنس : شُجّ النبيّ ﷺ يوم أحد فقال : كيف يفلح قوم شجُّوا وجه نبيّهم فنزلت : ليس لك من الأمر شيء» (١) ويقول الطّبريّ (٢) : «ذكر لنا أنّ هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ يوم أحد وقد جرح نبيّ الله ﷺ فى وجهه وأصيب بعض رباعيّته فقال وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدّم : كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيّهم بالدّم وهو يدعوهم إلى ربّهم فأنزل الله عزّ وجلّ : ليس لك من الأمر شيٌ أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون»

بين يدي تفسيرنا للآية الكريمة نودّ أن نقف على شيءٍ ممّا أصابه ﷺ يوم أحد ممّا جعله يدعو على أئمّة الكفر بالطّرد من رحمة الله تعالى فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه الآية الكريمة .

قال ابن إسحاق : فحدّثنى حميدٌ الطّويل عن أنس بن مالك قال : كُسِرَت رَباعيةُ النّبيّ ﷺ يوم أحد وشُجّ فى وجهه فجعل الدّم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدّم وهو يقول : كيف يُفْلِح قومٌ خضّبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك : ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون .

قال ابن هشام : وذكر رُبَيْحُ بن عبدالرّحمن بن أبى سعيدِ الخُدْريّ عن أبيه عن أبى سعيد الخُدْريّ أنّ عتبة بن أبى وقّاص رمى رسول الله ﷺ يومئذٍ فكسر رَباعيته اليُمْنى السُّفلى ، وجرح شَفَته السُّفلى ، وأنّ عبدالله بن شهابٍ الزّهريّ شجّه فى جبهته ، وأنّ ابن قَمِئَة جرح وَجْنَته (٣) فدخلت حَلْقتان من حَلَق المِغْفر (٤) فى وجنته ، ووقع رسول الله ﷺ فى حُفْرةٍ من الحُفَر الّتى عمل أبوعامر (٥) ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ

(١) تفسير ابن كثير ١ /٤٠٢ (٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٥٧

(٣) الوجنة : أعلى الخدّ
(٤) المِغْفر : شبيهٌ بالدّرع ذو حَلَق يجعلَ على الرّأس يتّقى به في الحرب
(٥) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفيّ بن مالك بن النعمان، أحد بنى ضبيعة خرج الى مكّة مباعداً لرسول الله ﷺ في غلمانٍ من الأوس وكان يسمّى في الجاهلية بالرّاهب فسمّاه رسول الله ﷺ بالفاسق انظر السّيرة لابن هشام ١٢/٣

عليّ بن أبي طالب بيد رسول الله ﷺ ، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتّى استوى قائماً ، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعيدٍ الخُدْريّ عن وجه رسول الله ﷺ ثم ازدرده (١)،فقال رسول الله ﷺ : من مسّ دمَه دمي لم تُصبْه النّار (٢)

وقتل وحشيٌّ غلام جُبير بن مطعم حمزة بن عبدالمطلب رضى الله تعالى عنه عمّ المصطفى ﷺ (٣)

قال ابن إسحاق : ووقعت هند بنت عُتْبة ــ كما حدّثنى صالح بن كيسان ــ والنّسوة اللّاتى معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يَجْدَعن (٤) الآذان والآنف حتّى اتّخذت هند من آن الرّجال وآنُفِهِمْ خَدَماً (٥)وقلائد . وأعطت هند خَدَمها وقلائدها وقِرطَتَها وَحْشِيّاً غلام جبير بن مُطْعم ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها (٦) فلم تستطع أن تُسيغها (٧) فلفظتها (٨)

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ ــ فيما بلغنى ــ يلتمس حمزه بن عبدالمطلب ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِر بطنه عن كبده ومُثّل به فَجُدِع أَنْفُهُ وأذناه ، فحدّثنى محمّد بن جعفر بن الزّبير أنّ رسول الله ﷺ قال ــ حين رأى ما رأى ــ لولا أن تحزن صفيّة وتكونَ سنّةً من بعدى لتركتُه حتّى يكون فى بطون السّباع وحواصل الطّير ، ولئن أظهرني الله على قريش فى موطنٍ من المواطن لأُمثّلنّ بثلاثين رجلًا منهم (٩) .

قال ابن هشام : ولمّا وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : لن أصابَ بِمثلِك أبداً ، ماوقَفْتُ موقِفاً قطّ أغيظَ إليَّ من هذا (١٠)

(١) ازدرده : ابتلعه
(٢) السّيرة النبويّة لابن هشام ٢٧/٣
(٣) انظر قصّة قتله رضّي الله تعالى عنه في السّيرة ١٥/٣
(٤) يجد عن : يقطعن
(٥) الخدم جمع خدمة ، ةهي الخَلْخال
(٦) لاكتها : مضغتها
(٧) تسيغها : تبلعها . لفظتها : طرحتها
(٨) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٤١/٣
(٩) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٤٧/٣
(١٠) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٤٧/٣

إنّ المصطفى محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى قاسى فى أحدٍ ما قاسى فى نفسه وفى استشهاد سبعين من أصحابه على أيدى أئمّة الكفر والّذى يدعو على أئمة الكفر بالطّرد من رحمة الله تعالى يخاطبه ربّه جلّ وعلا بالقول : ليس لك من الأمر شيء . والمعنى أنّ الأمر كلّه لله تعالى أوّلًا وآخراً ، وإنّما عليك أيّها الرّسول الكريم البلاغ ، والبلاغ فحسب وعليّ أنا وحدى الحساب ، فإن شئت تبت على هؤلاء الظّالمين وإن شئت عذّبتهم فى الدّنيا والآخرة .

ونحن نودّ أن نقف على نظم الآية الكريمة المعجز وأن نتبيّن معناها فى ضوء السّياق . وأوّل مانودّ أن نقرّره هو أنّ هذه الجملة «ليس لك من الأمر شيء» وقد عرفنا معناها ، جملةٌ معترضة . ويكون بعد ذلك سياق الكلام فى ضوء الآيات البيّنات على النّحو التّالى : ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين .

ويلاحظ أنّه ترتّب على نصر المؤمنين أمران قطع الطّرف من الكافرين وكبتهم . ويستمّر الكلام بعد ذلك على النّحو التّالى بعد تجاوز الجملة المعترضة «ليس لك من الأمر شيء»«أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون» وذلك بالعطف على : ليقطع طرفاً . ولمّا كانت التّوبة هنا أو العذاب إنّما هما فى حقّ الظّالمين المنتصرين ، فمعنى الكلام — والله تعالى أعلم — ولقد نصركم الله ببدرٍ ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم ، فى حال انتصاركم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فى حال انتصار أولئك الظّالمين ، على نحو ما تمّ فى غزوة أحد . وهكذا يتبيّن أنّ ثمّة أمرين اثنين ترتّبا على هزيمة المؤمنين وذلك على غرار الأمرين الاثنين اللّذين ترتّبا على هزيمة الكافرين . ولايسأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يسألون . وإنّ توبة الله على القوم تعنى إسلامهم .

ونودّ أن ندوّن بعض آيات الذّكر الحكيم الّتى تشير إلى عزّته وحكمته جلّ وعلا ، وإلى رأفته ورحمته تعالى .

فى هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران تجيء الإشارة إلى التّوبة أو إلى العذاب فى حقّ هؤلاء الظّالمين ، وتتأخر الإشارة إلى العفو والمغفرة والرّحمة فى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : «ولله مافي السّماوات ومافي الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله غفورٌ رحيم» ونبّه إلى تقدّم المغفرة فى الآية الكريمة على العذاب وذلك على غرار تقدّم التّوبة على العذاب فى الآية الكريمة السّابقة . والتوبة بمعنى قبوله جلّ وعلا توبة الظّالمين نوعٌ من المغفرة والرّحمة .

وعلى غرار هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث أساساً عن ظالمى قريش تجيء الآية الكريمة من سورة الفتح الّتى تتحدثّ أساساً عن المخلّفين من الأعراب . قال تعالى (١) : «ولله ملك السّماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذبّ من يشاء وكان الله غفوراً رحيما» .

وانظر فى المقابل إلى هذه الآية الكريمة من سورة المائدة الّتى تجيء إثر الأمر بقطع يد السّارق والّتى يتقدّم فيها العذاب . قال تعالى (٢) : «ألم تعلم أنّ الله له مُلْك السّماوات والأرض يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كلّ شيءٍ قدير» . وعلى غرار هذه الآية الكريمة من سورة المائدة تسير الآية الكريمة من سورة التّوبة الّتى تتحدّث عن فريقٍ من المتخلّفين عن غزوة تبوك . قال تعالى(٣) «وآخرون مُرْجون لأمر الله إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليمٌ حكيم» .

وانظر إلى العلم والحكمة فى الآية الكريمة وانظر إلى القدرة فى الآية الكريمة السّابقة .

وإنّ توبة الله تعالى على القوم الظّالمين الّتى تعني دخولهم فى دين الإسلام على نحو مابيّنّا تعنى أنّ القوم الظّالمين قد غدوا بإسلامهم إخوةً للمؤمنين . وعليه يكون ثمّة نوعٌ من علاقةٍ بين الآية الكريمة وبين هذه الآية الكريمة من سورة الممتحنة (٤) : «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم» .

(١) سورة الفتح ١٤
(٢) سورة المائدة ٤٠
(٣) سورة التّوبة ١٠٦
(٤) الآية ٧

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

صرّحت الآية الكريمة السّابقة بأنّ المصطفى ﷺ ليس له من الأمر شيء ، وهذا معناه أنّ الأمر كلّه لله تعالى . وهذه الآية الكريمة التّالية تصرّح بهذا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى وحده لاشريك له كلّ مافى السّماوات ومافى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً . يغفر لمن يشاء أن يغفر له بأن يهديه إلى الصّراط المستقيم ويتوب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ويتفضّل الله تعالى عليه بقبول توبته . ويعذّب من يشاء تعذيبه فى الدنّيا أو فى الآخرة أو فيهما معاً . والله غفورٌ رحيم .

ويلاحظ تقديم المغفرة على العذاب ، ويلاحظ أنّ التّذييل : «والله غفورٌ رحيم» قوّة لجوّ المغفرة المسيطر وجوّ الرّحمة المهيمن . وإليك هذا الدّليل على رحمة الله تعالى التى وسعت كلّ شيء : «عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عزّ وجلّ : ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون . قال : وهداهم الله للإسلام» (١) «وقال الإمام أحمد ... عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللّهمّ العن سهيل بن عمر ، اللّهمّ العن صفوان بن أمّية فنزلت هذه الآية ... فتيب عليهم كلّهم» (٢)

(١) تفسير الطّبريّ ٥٨/٤ وتفسير ابن كثير ٤٠٢/١ وفي الأخير أنّ الحديث رواه الإمام أحمد . وأشار الطّبريّ ٥٨/٤ إلى أنّ أبا سفيان من بين الّذين دعا عليهم النّبيّ ﷺ باللّعنة .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٢/١

تبيّن الآية الكريمة حكم المرأة فى ابتداء الإسلام إذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة ، وذلك بأن تحبس فى بيتٍ فلا تمكّن من الخروج منه إلى أن تموت (١) والسّبيل الّذى جعله هو النّاسخ لذلك (٢) قال ابن عبّاس رضى الله عنه : كان الحكم لذلك حتى أنزل الله سورة النّور فنسخها بالجلد أو الرّجم . وكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخرسانى وأبى صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضّحّاك أنّها منسوخة وهو أمرٌ متّفق عليه (٣) روى مسلم وأصحاب السّنن مِنْ طرق عن قتادة عن الحسن عن حطّان عن عبادة بن الصّامت عن النّبيّ ﷺ : خذوا عنّى خذوا عنّى. قد جعل الله لهنّ سبيلا . البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثّيب بالثّيب جلد مائةٍ والرّجم قال الترمذي : هذا حديثٌ حسن صحيح (٤)

وهكذا تبيّن الآية الكريمة الحكم فى المرأة إذا زنت فى أول الإسلام حتّى نسخ ذلك الحكم بسورة النّور . إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ اللاّتى يأتين فاحشة الزّنا من النّساء المسلمات فإنّ على المسلمين أن يستشهدوا عليهنّ أربعةً من الشّهود الذّكور العدول ستراً من الله تعالى على العباد وتغليظاً على المدّعى . فإنْ شهد الأربعة فعلى المسلمين أن يمسكوا بالنّساء الزّانيات وأن يحبسوهنّ حتّى يتوفّاهنّ الموت فيلحقن بالرّفيق الأعلى أو يجعل الله سبحانه وتعالى لهنّ سبيلا . وفى هذا إيحاء بتغيّر الحكم . وقد عرفنا أنّ هذا الحكم قد نسخته سورة النّور .

والآية الكريمة فى النّساء عامة محصنات وغير محصنات (٥)

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٦٢/١

(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٢/١

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٢/١

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤٦٢/١ وتفسير القرطبيّ ص ١٦٥٥

(٥) تفسير القرطبيّ ص ١٦٥٦

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

من الواضح أنّ الآية الكريمة تنهى عن أكل الرّبا وتأمر بتقوى الله تعالى . وما العلاقة بين الرّبا وبين الحديث عن غزوة أحد وملابساتها والدّروس المستفادة منها ؟
من أجل الإجابة على هذا السّؤال نودّ أن نستعرض سريعاً الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن غزوة أحد وماتخلّلها من آيات كريمات تتحدّث فى غير الغزوة إلى أن اتّجه الحديث إلى النّهي عن الرّبا والأمر بتقوى الله تعالى ابتداءً .

بعد أن تحدّثت الآيات الكريمات عن غدوّه عليه الصلام والسّلام من أهله يبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال كان الحديث عن الطّائفتين من الأنصار اللّتين همّتا بالفشل والجبن والتّخاذل لولا أن عصمهما الله تعالى . وإنّ الحديث عن الفشل الّذى كاد يحدث قبل المعركة من جنس الفشل الّذى تمّ فى أثناء المعركة منذ أن عصى الرّماة أمر المصطفى ﷺ . فثمّة تجانس فى اتّجاه الحديث بين يدي المعركة وفى أثنائها .

ولمّا كانت الهزيمة الّتى تمّت بإذن الله تعالى قد آلمت المسلمين وأزعجتهم ولمّا كانت المصيبة الّتى أصابت المسلمين إنّما هي من عند أنفسهم بسبب عصيان الرّماة أمر المصطفى ﷺ ، فإنّ الحديث يتحوّل إلى تذكير المؤمنين بفضل الله تعالى عليهم فى المعركة الحاسمة السّابقة ، وبنصر الله تعالى لهم فى بدرٍ وهم أذلّة ، كي ترسخ هذه النّعمة الكبرى فى نفوس المسلمين الّتى صهرتها الهزيمة القاسية فغدت فى هيئة المعدن الذى أوقد عليه فى النّار فعاد أداةً طيّعة ومادّة مرنةً قابلةً لأن تتشكّل فى الهيئة المطلوبة بأقلّ الطّرْق وأيسر الجهْد .
وهاهي ذى الآيات الكريمات تتحوّل إلى الحديث عن النّصر الّذى كتبه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين فى بدرٍ وهم أذلّة . إنّ التّحوّل من الحديث عن المصيبة إلى النّعمة ممّا يظهر النّعمة الكبرى على حقيقتها ، وينبّه إلى وجوب شكر الله تعالى عليها ، ويحقّق التّوازن فى نفوس المسلمين الّتى كادت تذهب بها ريح الهزيمة العاصفة القاصفة . وهذا التّحول من المعنى إلى ضدّه من الشّيء إلى نقيضه تعود إليه السّورة المريمة للأسباب السّابقة نفسها ، وفى مقدّمتها إعادة التّوازن إلى النّفوس الّتى كادت تحطّمها الهزيمة المريرة ، وذلك فى

مثل قوله تعالى (١) : «أَوَ لمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قُلْ هو من عند أنفسكم إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الّذين نافقوا ....»

وبما أنّ النّفوس من اللّين والطّواعية على النّحو الّذى عرفناه ، وبما أنّ الإسلام كلّ لا يتجزّأ ، وهو كلّ شيءٍ ، ومن هذه الأشياء الحرب والسّلم البيع والشّراء ، الحلال والحرام وما إلى ذلك ، وبما أن الذّنب الوحيد الّذى أعلن ربّ العزّة الحرب على مرتكبيه هو الرّبا وقد قال تعالى (٢) : «ياأيّها الّذين آمنوا اتّقو الله وذروا مابقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله .....» لذا كان فى أعماق الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن الحرب ، الحديث عن هذا الذّنب الّذى أعلن ربّ العزّة وأعلن رسوله الكريم الحرب على مرتكبه ، ألا وهو الرّبا . ثم استمرّ إلقاء الدّروس والمواعظ على النّفوس المستعّدة تماماً للتّلقّى .

وفى الآية الكريمة نهىٌ وأمر . والنّهى فى العادة أسهل لذا كان الابتداء به .

ثمّ كان الأمر لأنّه مبنيٌّ على النّهي ومترتّب عليه . والآية الكريمة تنهى المؤمنين فى هذا التّعبير الّذي يتضمّن أهمّ نعت لهم يشهد الله تعالى بتحقّقه ألا وهو الإيمان : «ياأيّها الّذين آمنوا» ويُنْهى عن التّعامل بالرّبا فى هيئة النّهى عن أكله لأنّ الغالب على استعمال الأموال ميدان الأكل . وينصّ هنا على النّهى عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفة ، وهذا النّوع من الرّبا هو الّذى كان يتعامل به المخاطبون فى الجاهليّة فنهوا عن التّعامل به فى الإسلام : «كانوا فى الجاهليّة يقولون إذا حلّ أجل الدّين : أماّ أن تَقْضِيَ وإمّا أن تُرْبِي ، فإن قضاه وإلّا زاده فى المدّة وزاد الآخر فى القدر وهكذا كلّ عام فربّما تضاعف القليل حتّى يصير كثيراً مضاعفاً» (٣)

وحينما يمتثل المخاطبون للنّهي عن التعامل بالرّبا يزول السَّبب المانع من تقوى الله تعالى ، وهنا يأتى الأمر بتقوى الله تعالى لعلّ المتّقين يفلحون وفى الامتحان ينجحون كي يدخلوا بفضل الله تعالى الجنّة الّتى فيها مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(١) سورة آل عمران ١٦٥ – ١٦٧
(٢) سورة البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩
(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٠٤

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾

لعلّ المؤمنين يفلحون حينما يتّقون الله تعالى ويدخلون الجنّة بفضل الله تعالى . وإنّ دخول الجنّة بفضل الله تعالى يقتضى العمل الصّالح الخالص لله تعالى من أجل دخول الجنّة . وعلى العبد أن يعلم أنّ دخوله الجنّة إنّما هو بفضل الله تعالى الذى أعانه على فعل الطّاعات والّذى تقبّلها فله جلّ وعلا الفضل والمنّة . وهذه الآية الكريمة تعمّق من تقوى الله تعالى المأمور بها فى الآية الكريمة السّابقة وذلك بالأمر باتّقاء النّار الّتى أعدّها الله سبحانه وتعالى للكافرين ، ويكون ذلك بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . وإنّ من الأوامر تقوى الله سبحانه وتعالى ، وإنّ من النّواهى التّعامل بالرّبا .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾

إنّ الأمر بالتّقوى وباتّقاء النّار أمرٌ من الله سبحانه وتعالى ، وإنّ النّهي عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفةً نهيٌ من الله تعالى ، وفى امتثال الأوامر والنّواهى طاعةٌ من العبد لله تعالى وطاعةٌ لرسوله الكريم ﷺ لأنّه عليه الصّلاة والسّلام هو المبلّغ عن الله تعالى . وهذه الآية الكريمة تأمر صراحةً بما ألمحت إليه الآيتان الكريمتان السّابقتان . فعلى المؤمنين أن يطيعوا الله ويطيعوا رسوله الكريم طاعةً مطلقة ، فلعلّ رحمة الله سبحانه وتعالى حينما يطيعون الله تعالى ورسوله ، تشملهم فى الدّنيا والآخرة . إنّ رحمة الله تعالى وسعت كلّ شيء ، وإنّ المؤمنين أحقّ الخلق بها ، فعليهم أن يجتهدوا فى عمل الأسباب الموجبة لها المؤدّية إليها .

وإنّ فى الآية الكريمة معاتبةً للّذين لم يطيعوا الرّسول ﷺ ، وهم الرّماة الّذين أمرهم عليه الصّلاة والسّلام ألّا يغادروا الجبل مطلقاً كيلا يأتى الكفّار من خلف المسلمين . إنه بسبب عصيان الرّماة تحقّق ماتخوّفه المصطفى ﷺ .

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾

إذا كانت هذه الآية الكريمة «واتّقوا النّار الّتى أُعدّت للكافرين» تبيّن ما أعدّ للكافرين ممّا يشبه الدّار الّتى يسكنونها يوم القيامة وهى النّار وبئس القرار ، فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن ما أعدّ للمؤمنين يوم القيامة من دارٍ ومستقرّ ، إنّها الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض . إنّ المطلوب من المؤمنين الّذين لا يأكلون الرّبا والّذين يتّقون الله تعالى ويتّقون النّار ويطيعون الله ورسوله أن يسارعوا ويبادروا ويسابقوا (١)إلى مغفرةٍ من ربّهم ، بأن يطلبوا منه جلّ وعلا الغفران ، وهو ستر الذّنب وإظهار الإحسان بدله ، فضلًا منه جلّ وعلا وكرماً ، وأن يعملوا الحسنات وقد قال تعالى (٢): « إن الحسنات يذهبن السّيئات» وأن يسارعوا ويبادروا ويسابقوا عن طريق الاستغفار وعمل الصّالحات إلى الجنّة الّتى عرضها السموات والأرض إذا ضُمّ بعض السّماوات السّبع والأرضين السّبع إلى بعض . قال ابن عبّاس : تقرن السّماوات السّبع والأرضون السّبع كما تقرن الثّياب بعضها إلى بعضٍ فذاك عرض الجنّة (٣) إنّ تلك الجنّة الّتى لا يعلم سَعَتَها وعِظَمها إلّا الله تعالى قد أعدّها جلّ وعلا داراً للمتّقين .

وتبيّن الآيتان الكريمتان التّاليتان بعض صفات أولئك المتّقين .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٥٩
(٢) سورة هود ١١٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٦٠

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

الّذين ينفقون فى السّرّاء والضّرّاء : السّرّاء مصدر من قولهم : سرّنى هذا الأمر مسرّةً وسرورا . والضّرّاء مصدر من قولهم : قد ضرّ فلانٌ فهو يضرّ إذا أُصابه الضّرّ ، وذلك إذا أصابه الضّيق والجهد فى عيشه (١) .

والكاظمين الغيظ : الكظم : مَخْرج النَّفَس ... وكَظْمُ الغيظ حَبْسُه . قال : والكاظمين الغيظ . ومنه : كظم البعيرُ إذا ترك الاجترار ، وكَظَم السّقاءَ شدّه بعد ملئه مانعاً لنَفَسه (٢) وفلانٌ كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً غمّاً وحزناً ومنه قول الله عزّ وجلّ : وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم ، يعنى ممتلىء من الحزن (٣)

والغيظ : مصدر من قول القائل : غاظنى فلانٌ فهو يغيظنى غيظاً وذلك إذا أحفظه وأغضبه (٤)

والعافين عن النّاس : العين والفاء والحرف المعتلّ أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّىء والآخر على طلبه . فالأوّل ، العفو : عفو الله تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلًا منه . قال الخليل : وكلّ من استحقّ عقوبةً فتركته فقدعفوت عنه. يقال عفا عنه يعفو عَفْواً (٥) وعليه فالعفو : إزالة الذّنب بترك عقوبته (٦)

بيّنت الآية الكريمة عدداً من نعوت المتّقين أصحاب الجنّة . إنّهم ينفقون أموالهم فى الطّيّبات وفى سبيل الله تعالى فى السّرّاء والضّرّاء ، الرّخاء والشّدّة ، اليسر والعسر . وقد بيّنت هذه الآية الكريمة طبيعة إنفاق هؤلاء المتّقين عباد الرّحمن . قال تعالى (٧) «والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما» فهؤلاء المتّقون ينفقون فى اليسر والعسر وهم فى الإنفاق لا يجعلون أيديهم مغلولةً إلى أعناقهم ولا يبسطونها كلّ البسط امتثالًا لتوجيهات الآية الكريمة . قال تعالى (٨) :«ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسورا» . وبهذا يتبيّن أنّ هذه الصّفة للمتّقين متعدّية إلى الآخرين .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٦١
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٣٢
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٦١
(٤) تفسير الطّبريّ ٤/٦١
(٥) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس (عفو) ٤/٥٦
(٦) أنظر البحر المحيط ٣٧٠/٢
(٧) سورة الفرقان ٦٧
(٨) سورة الأسراء ٢٩

فإذا تحوّلنا إلى الصّفة الثّانية نتبيّن أن هؤلاء المتّقين قد وفقّهم الله تعالى أن تكون صفةً لازمة لهم ، وفى هذا اللّزوم تكمن العظمة «والكاظمين الغيظ» فهؤلاء المتّقون يستطيعون بفضل الله تعالى وحسن توفيقه أن يكظموا غيظهم وهم القادرون على الانفجار والانتقام ، ويكبحوا من جماح غضبهم وحفائظهم . يصدر منهم كلّ ذلك امتثالًا لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ورجاءً للثّواب الجزيل من الله تعالى . إنّ نفوسهم الممتلئة غيظاً وصدورهم الّتى تكاد تنفجر غضباً ، يستطيعون بفضلٍ من الله تعالى وعون أن يسيطروا عليها وهم القادرون على الانتقام ، رجاءً لما عند الله تعالى ممّا هو خيرٌ وأبقى . روى الإمام أحمد والبخاريّ ومسلم أنّ النّبيّ ﷺ قال : «ليس الشّديد بالصُّرَعة ولكنّ الشّديد الّذى يملك نفسه عند الغضب» (١) وروى الإمام أحمد أنّ رجلًا سأل النّبيّ ﷺ فقال : يارسول الله قل لى قولًا ينفعنى وأقلل عليّ لعلّى أعيه فقال رسول الله ﷺ : لاتغضب (٢) وروى الإمام أحمد أنّ النّبيّ ﷺ قال : إنّ الغضب من الشّيطان ، وإنّ الشّيطان خلق من النّار . وإنّما تطفأ النّار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ (٣)

وبفضلٍ من الله تعالى ومَنٍّ يتجاوز المتّقون أصحاب الجنّة هذه المنزلة الرّفيعة من الخلق العظيم إلى منزلةٍ أرفع منها . إنّهم لا يكظمون غيظهم فقط إنّما يتجاوزون ذلك إلى إزالة آثار هذا الغيظ من صدورهم وتتمثّل هذه المنزلة فى العفو عن النّاس ، كلّ النّاس ، وذلك بتركهم دون معاقبةٍ فضلًا منهم وكرماً ، وإزالة ذنوبهم بترك عقوبتهم . ويقترن بهذه المرحلة سعادة روحية تتجاوز تلك السّعادة الّتى امتلأت بها نفس الكاظم غيظه . ويتجاوز المتّقون أصحاب الجنّة بفضلٍ من الله تعالى هذه المرحلة إلى مرحلة الإحسان إلى من أساء إليهم . روى أنّ النّبيّ ﷺ قال : من سرّه أن يشرف له البنيان وترفع له الدّرجات فليعف عمّن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه (٤)

وإنّ مرحلة الإحسان الّتى ارتفع إليها المتّقون أصحاب الجنّة قد جعلت الله سبحانه وتعالى يحبّهم ، يرضى عنهم ويوفّقهم ويسدّد خطاهم ويكلؤهم بعين عنايته ورعايته .

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٠٥
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٠٥
(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٠٤
(٤) تفسير ابن كثير ١/٤٠٥

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

الفحش والفَحْشاء والفاحشة : ماعَظُمَ قُبحُه من الأفعال والأقوال [١]

ولم يصّروا على مافعلوا : لم يثبتوا على ما أتوا من الذّنوب ولم يقيموا عليه ولكنّهم تابوا واستغفروا كما وصفهم الله به [٢] .

المتّقون أصحاب الجنّة ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون بل هم بشرٌ ولكنّهم توّابون ، وخير الخطّائين التّوّابون . والآية الكريمة تبيّن أنّ أولئك المتّقين الّذين ذكرت الآيات الكريمات من قبل بعض نعوتهم يصحّ أن يصدر عنهم بعض مايعظم قبحه من الأفعال والأقوال ، ومايظلمون بسببه أنفسهم ممّا هو دون ذلك من الذّنوب والمعاصى ، ولكنّ ميزة هؤلاء المتّقين أنّهم على علمٍ تامّ بأنّ لهم ربّاً غفورا ، وبأنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ التوّابين ، وبأنّه جل وعلا هو الّذى يغفر الذّنوب وحده لا شريك له ، وبأنّ واجبهم أن يتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً ، بأن يقلعوا عن فعل الفاحشة وظلم أنفسهم ، وأن يندموا على مافرّطوا فى جنب الله تعالى ، وأن يصمّموا على عدم معاودة ارتكاب الفاحشة وظلم النّفس ، وأن يستغفروه جلّ وعلا لذنوبهم . وانظر إلى هذه الجملة المعترضة : «ومن يغفر الذنوب إلّا الله» والمعنى : لا يغفر الذّنوب إلا الله وحده جلّ وعلا خلافاً لما يدّعيه كلّ أفّاكٍ أثيم كذباً على الله تعالى وافتراءً عليه .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني ٣٧٣
(٢) تفسير الطّبريّ ٦٣/٤

وتثنى الآية الكريمة على هؤلاء المذنبين المستغفرين التّائبين بأنّهم لا يصرّون على ما فعلوا من فحشاء ، ولا يثبتون على مابدر منهم من ظلمهم أنفسهم ، بل يبادرون إلى الإقلاع عن المعصية ، ويسرعون الرّجوع إلى الله تعالى وهم الّذين يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى قد نهى عن ارتكاب المعاصى وأوعد من ارتكبها وأصرّ على ارتكابها ولم يتب إلى الله سبحانه وتعالى توبةً نصوحاً وقد قال تعالى (١) : «إنمّا التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئاتِ حتّى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنّى تبت الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار ، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما» .

فى الصّحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه أنّه توضّأ لهم وضوء النّبيّ ﷺ ثم قال : سمعت النّبيّ ﷺ يقول : من توضّأ نحو وضوئى هذا ثمّ صلّى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ماتقدّم من ذنبه . فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمّة الأربعة الخلفاء الرّاشدين عن سيّد الأوّلين والآخرين ورسول ربّ العالمين كما دلّ عليه الكتاب المبين ، من أنّ الاستغفار من الذّنب ينفع العاصين (٢)والأحاديث المروية فى الاستغفار كثيرة.

(١) سورة النساء ١٧ ، ١٨

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٠٧ والأحاديث التى رواها في الاستغفار رحمه الله تعالى رحمة واسعة

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

المتّقون أصحاب الجنّة الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات والّذين تابوا إلى الله توبةً نصوحاً وطلبوا منه جلّ وعلا عفوه وغفرانه لما بدر منهم من سيّئات لأنّهم يعلمون أنّ لهم ربّاً غفوراً وأنّه لا يغفر الذّنوب إلّا الله جزاؤهم عند ربّهم يوم القيامة مغفرةٌ لذنوبهم من ربّهم جلّ وعلا . وحينما نتبيّن الفرق بين العفو والمغفرة ، وأنّ العفو يقف عند ترك المؤاخذة بالذّنب ، بينما تتجاوز المغفرة ترك المؤاخذة بالذّنب إلى ستره عن الخلائق ندرك فضل الله تعالى علينا نحن العباد حينما يأمرنا ربّنا جلّ وعلا بأن نسارع إلى مغفرةٍ منه جلّ وعلا وذلك فى القول : «وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم» وحينما يرشدنا ربّنا جلّ وعلا إلى طلب المغفرة منه تعالى ذلك فى القول : «والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلّا الله» وهاهي ذى الآية الكريمة تقرّر فضل الله سبحانه وتعالى الّذى غفر ذنوب عباده المستغفرين بأن ترك المؤاخذة عليها وسترها .

وإذا كانت المغفرة من نصيب السّيّئات فإنّ الجنّات الّتى تجرى من تحتها الأنهار والّتى يخلد فيها المتّقون أصحابُ الجنّة جزاءُ عملهم الصّالحات .

ولا ننسى فضل الله سبحانه وتعالى بتحويل سيّئات المستغفرين التائبين المؤمنين العاملين الصّالحات حسنات وقد قال عزّ وجلّ من قائل فى أثناء الحديث عن صفات عباد الرّحمن فى سورة الفرقان (١) : «إلّا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما» .

إنّ فى الجنّة مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنص الآية الكريمة على عماد الجنات ونعيمها وهي الأنهار المتعدّدة الأشكال المختلفة الأنواع الّتى تتدفق فى الجنّة .

والآية الكريمة فى تذييلها «ونعم أجر العاملين» تمدح الجنّة .

والمعنى : ونعم جزاء العاملين لله الجنّات الّتى وصفها (٢) ونعم أجر العاملين أي ثواب المطيعين (٣)

---

(١) الآية ٧٠

(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٦٥

(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٦٥

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٧

قد خلت : قد مضت وسلفت (١) وذهبت (٢)

سنن : السّنن جمع سُنّة ، والسُّنّة هى المثال المتّبع والإمام المؤتمّ به . يقال منه : سنّ فلانٌ فينا سنّةً حسنة ، وسنّ سنّةً سيّئة ، إذا عمل عملاً اتّبع عليه من خير وشرّ ومنه قول لبيد بن ربيعة :

من معشرٍ سنّت لهم آباؤهم ولكل قومٍ سنّةٌ وإمامها

وقول سليمان بن قنة :

وإنّ الألى بالطّفّ مِنْ آل هاشم تآسَوْا فسنّوا للكرام التّآسيا (٣)

ويقول القرطبيّ (٤) : «والسُّنن جمع سُنّة وهي الطّريق المستقيم وفلانٌ على السّنّة أي على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء .

قال الهذلي :

فلا تَجْزَعَنْ من سنّةٍ أنت سِرْتها فأوّل راضٍ سنّةً من يسيرها»

فى هذه الآية الكريمة تسلية للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وتسريةٌ عنهم إثر ما أصابهم فى يوم أحد . والآية الكريمة تخاطب أولئك المؤمنين مبيّنةً لهم أنّه قد خلت من قبلهم سُنن ومضت من قبلهم وسلفت طرقٌ مماثلة ومَثُلاتٌ مشابهة لحكمةٍ اقتضتها مشيئتى وإرادتى بأن أبتلي المؤمنين وأختبر المتّقين فأجعل الدّولة مرّة للمشركين على المؤمنين لأعلم علم ظهورٍ مدى صبر المؤمنين المتّقين وامتثالهم لمشيئتى ، ولكي أستدرج المشركين المكذّبين رسلي المحاربين أوليائي وأملي لهم بقصد أن يعودوا إلى جادّة الصّواب وألّا يظنّوا الإمهال إهمالًا ، حتّى إذا أصرّ الكافرون على خطئهم فعصوا ربّهم وكذبوا رسله جلّ وعلا أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، «فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٦٥
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ١٥٨
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٦٥
(٤) تفسير القرطبيّ ص ١٤٥٨

الصّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا» (١) «وذلك هو المثلاث الّتى قال الله جلّ ثناؤه : وقد خلت من قبلهم المثلات . والمثلات : العقوبات المنكلات ، والواحدة منها مثلة ، بفتح الميم وضمّ الثّاء ، ثم تجمع مثلات ، كما واحدة الصّدقات صدقة ثمّ تجمع صدقات» (٢) وأطلق على العقوبة لفظ المثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة (٣)أو لما بين العقاب والمعاقب من المماثلة كقوله تعالى : « **وجزاء سيّئة سيّئةٌ مثلها** »(٤)

إنّ عليكم أيّها المؤمنون المختبرون أن تتأمّلوا سنن الله تعالى الّتى لا تتخلّف وطرائقه الّتى لا تتغيّر فى كون العاقبة دائماً وأبداً للمتّقين : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون» (٥) «إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد» (٦) ويصحّ أن يكون بإرادة الله تعالى جولة واحدة أو جولاتٌ للباطل ، ودولةٌ واحدةٌ أو دول للكفر ، ولكنّ العاقبة دائماً وأبداً للمتّقين ، فعلى كفّار مكّة أن يعتبروا بالمثلات السّابقات ، وأن يتدبّروا سنن الله تعالى الّتى لا تتغيّر ولا تتخلّف ، وإنّ فى إمكان كلّ متدبّر أن يسير فى الأرض وأن ينظر كيف كان عاقبة المكذّبين ، كعادٍ وثمود ومن سار على نهجهم . وقد جاء فى حقّ قوم لوط قوله تعالى (٧) : «وإنّ لوطاً لمن المرسلين . إذ نجّيناه وأهله أجمعين . إلّا عجوزاً فى الغابرين . ثمّ دمّرنا الآخرين . وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين . وباللّيل أفلا تعقلون» .

عليكم أيّها المؤمنون الّذين أصابكم القرح يوم أحد أن تثقوا بأنّ العاقبة لكم والنّصر بإذن الله تعالى من نصيبكم إن كنتم مؤمنين .

(١) سورة العنكبوت ٤٠
(٢) تفسير الطّبريّ ٧٠/١٣
(٣) الكشاف ١٥٩/٢
(٤) البحر المحيط ٤٥٨/٥
(٥) سورة الصّافات ١٧١ - ١٧٣
(٦) سورة غافر ٥١
(٧) سورة الصّافات ١٣٣ - ١٣٨

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

البيان : الكشف عن الشّيء ، وهو أعمّ من النّطق مختصٌّ بالإنسان ويسمّى مابُيّن به بياناً . وسمّي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصودِ إظهارُه نحو : هذا بيانٌ للنّاس . وسُمّي مايُشْرَحُ به المُجْمَل والمُبْهَم من الكلام بياناً نحو قوله : ثمّ إنّ علينا بيانه (١)

تبيّن الآية الكريمة أنّ هذا القرآن الكريم الّذى كشف فى الآيات

السّابقات عن بعض الحكم الرّبانية من ابتلاء المؤمنين بين يدي نصرهم على عدوهم وجَعْلِ الدّولة لهم أخيراً ، بيانٌ للنّاس مؤمنهم وكافرهم ، وتوضيحٌ وتفسير لبعض المعانى الخفيّة والمرامى القصيّة الّتى قد تغيب على الكثيرين منهم . ومنهم المؤمنون الّذين قالوا : أنّى هذا ؟ وذلك حينما أصابتهم المصيبة فى أُحُد باستشهاد سبعين منهم . إنّ لله سبحانه وتعالى سنناً لا تتغيّر ولا تتبدّل حتّى يبلغ الكتاب أجله بنصر الرّسل والّذين آمنوا ودحر الشّرك وأهله . وإذا كان البيان من نصيب النّاس جميعهم مؤمنهم وكافرهم ، ولكلٍّ من العقل والقلب نصيبٌ منه ، فإنّ هذا القرآن هدىً وموعظةٌ للمتّقين بخاصّة .

إنّ هذا القرآن الكريم والكتاب العزيز نورٌ يهدى به الله تعالى من اتّبع رضوانه سبل السّلام ، وقد قال تعالى (٢) : «إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيرا» وهو موعظةٌ تتسلّل إلى قلوب المتّقين وتتمكّن منها فتلين تلك القلوب وترقّ لذكر الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل (٣) : «الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد» .

إنّ على العقول أن تشبع من هذا القرآن الكريم . وإنّ على القلوب أن تتضلّع من مائه العذب النّمير . إنّ القرآن الكريم دليل كلّ عقلٍ حصيف نظيف ، وهادى كلّ قلبٍ سليم لطيف .

ويلاحظ عناية الآية الكريمة بالمتّقين والتّنبيه إلى المرتبة الرّفيعة للتّقوى ، وكأنّها لا تريد للنّاس كلّ النّاس مرتبةً أقل من مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان ، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ٦٨
(٢) سورة الاسراء ٩
(٣) سورة الزّمر ٢٣

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

تنهى الآية الكريمة المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى والّذين أصابهم القرح فى غزوة أحد عن الوهن بمعنى الضّعف عن مواصلة الجهاد فى سبيل الله تعالى بسبب الهزيمة الّتى حلّت بهم وعن الحزن بمعنى الأسى بسبب المصيبة الّتى نزلت ، فكلّ ذلك إنّما تمّ بإذن الله تعالى ولحكمةٍ اقتضتها مشيئته جلّ وعلا . وتقرّر الآية الكريمة أنّ المسلمين المؤمنين المتّقين هم الأعلون على الكافرين وهم الّذين لهم النُّصرة على خصوم الإسلام فى كلّ زمانٍ ومكان شريطة أن يكونوا مؤمنين مطبّقين لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ .

والآية الكريمة وإن نزلت فى مناسبةٍ خاصّة هي هزيمة أحد ، فالعبرة كماهو معروف بعموم اللّفظ لا بخصوص السَّبب إنّ المؤمنين هم الأعلون دائماً وأبداً بفضل الله تعالى ومنّه .

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

تعزّى الآية الكريمة المؤمنين الّذين أصابهم القرح فى أحد فتبيّن فى مخاطبتها لهم أنهم إنْ يمسسهم فى أحدٍ قرح ويصبهم فى تلك الغزوة قتلٌ وجراح ، بأن قتل منهم سبعون وجرح آخرون ، فقد مسّ القوم من قبل قرحٌ مثله وأصابهم فى بدرٍ قتلٌ وجرحٌ وأسر ، فقد قتل من كفّار قريش سبعون وأسر سبعون وجرح آخرون . لقد نصر الله سبحانه وتعالى المؤمنين ببدرٍ وهم أذلّة وجعل الدّولة لهم بينما نصر الله سبحانه وتعالى المشركين فى أحد بسبب عصيان المؤمنين أمر النّبيّ ﷺ لحكمةٍ اقتضتها مشيئته جلّ وعلا ، وإلى جعل الله سبحانه وتعالى الأيّام دولًا بين النّاس ، مؤمنهم وكافرهم أشار قوله تعالى : «وتلك الأيّام نداولها بين النّاس» يقال : «أدال الله فلاناً من فلان فهو يديله منه إدالةً إذا ظفر به فانتصر منه ممّا كان نال منه المدال منه» (١) والمعنى : وتلك الأيّام نداولها بين النّاس ليتّعظوا فيعلم المؤمن أن مجرد

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٦٨

الإيمان دون إعداد العدّة للقتال والأخذ بأسباب القوّة وامتثال الأوامر والنّواهى من الله تعالى ومن رسوله الكريم لايكفي لتحقيق النّصر ، وليعلم الكافر أنّ إمهال الله تعالى له ليس إهمالًا فعليه أن يعود إلى بارئه جلّ وعلا ويتوب إليه توبةً نصوحاً . وبالإضافة إلى اتّعاظ النّاس بجعل الله تعالى الأيّام دولًا بينهم والّذى يكون بنصر الله تعالى الكافرين على نحو ماحصل فى أحد ، يكون علم الله تعالى علم ظهورٍ الّذين آمنوا كي يثيبهم والّذين نافقوا كي يعاقبهم ، كما يتمّ اتّخاذ الله سبحانه وتعالى من المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا شهداء سعداء على غرار اتّخاذه جلّ وعلا شهداء فى غزوة أحد ، والمعروف أنّ منزلة الشّهيد عند الله تعالى رفيعةٌ حقّاً إذ لا يتقدّمها سوى منزلة الصّدّيق بين يدي درجتي النّبوّة والرّسالة .

وأولئك الظّالمون الّذين ظلموا أنفسهم فلم يسلموا لله ربّ العالمين بل أشركوا معه جلّ وعلا سواه وظلموا غيرهم على نحو مافعلوا فى أحد من قتل الشّهداء وجرح المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، وأولئك الظّالمون لا يحبهم الله سبحانه وتعالى ولايرضى عنهم ولايبارك أعمالهم ولا يسدّد خطاهم وإنّ مصيرهم — إن لم يتوبوا إلى الله تعالى — النار وبئس القرار ، والعياذ بالله .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ١٤١

أصل المحص تخليص الشّىء ممّا فيه عيبٍ كالفحص ، لكنِ الفحصُ يقال فى إبراز شيءٍ من أثناء ما يختلط به وهو منفصلٌ عنه ، والمحص يقال فى إبرازه عمّا هو متّصلٌ به ، يقال : مَحَصْتُ الذّهب ومحّصتُه إذا أزلت عنه مايشوبه من خبث قال : وليمحّص الله الّذين آمنوا . وليمحّص مافى قلوبكم . فالتّحميص ههنا كالتّزكية والتّطهير ونحو ذلك من الألفاظ (١)

والمحق النّقصان ومنه المِحاق لآخر الشّهر إذا انمحق الهلال . وامتحق وانمحق ، يقال : مَحَقَه إذا نَقَصه وأذهب بركته ، قال : يمحق الله الرّبا ويُربى الصّدقات . وقال : ويمحق الكافرين (٢)

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٦٤
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٦٤

بيّنت الآية الكريمة السّابقة بعض نعم الله تعالى على المؤمنين حينما يبتليهم كأن يتّخذ منهم جلّ وعلا شهداء وبعض مظاهر غضبه جلّ وعلا على الظّالمين حينما لا يحبّهم جلّ وعلا ولا يرضى عنهم . وتعمّق هذه الآية الكريمة التّالية تلك المعانى . فمن نعم الله تعالى على المؤمنين فى غزوة أحدٍ أنّ الله سبحانه وتعالى محّصهم بالابتلاء وطهّرهم بالقتل وزكّاهم بالجراح ونقّى صدورهم ونفوسهم ممّا علق بها من أدران وأوشاب ، والدّليل على ذلك أنّ درس أحد لم يكد يتكرّر إلّا فى حنين وذلك حينما أعجبت المؤمنين ــ وفيهم كثيرٌ من الدّاخلين حديثاً فى الإسلام ــ كثرتهم على نحو مابيّنت سورة التّوبة ، ولكن سرعان مافاءت الفئة المؤمنة المجاهدة إلى نداء رسول الله ﷺ فحوّلت ــ بإذن الله تعالى ــ الهزيمة إلى نصر .

وإذا كان التّمحيص والتّزكية والتّطهير من نصيب المؤمنين ، ويلاحظ مجيء جملة محّص مشدّدة دليلًا على تكثير الفعل واصطفاء الله تعالى أولياءه بالابتلاء ، فإنّ من نصيب الكافرين النّقصان والهلاك . ويلاحظ مجيء لفظة الكافرين هنا «ويمحق الكافرين» بينما جاءت لفظة الظّالمين فى الآية الكريمة السّابقة : «والله لا يحبّ الظّالمين» فثمّة زيادةٌ فى صفات السّوء ، وتبيينٌ للسّبب الّذى من أجله استحقّ القوم الهلاك والمحق ، وتحذيرٌ للقوم من الاستمرار على الظّلم والكفر فإنّ الله سبحانه وتعالى يمهل ولايهمل ويوشك جلّ وعلا أن يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حريصون على دخول الجنّة ونيل كرامة ربّهم جلّ وعلا وشرف المنزلة عنده سبحانه وتعالى . والآية الكريمة تسأل أولئك المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا ، ويصحّ وراء ذلك أن يتّجه السّؤال إلى المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان : أم حسبتم أيّها المؤمنون الّذين أصابكم القرح فى أحد أن تدخلوا الجنّة الّتى عرضها السّموات والأرض ، والتى أعددتها للمتّقين ، والّتى فيها مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولمّا يعلم الله سبحانه وتعالى علم ظهور الّذين جاهدوا فى سبيله تعالى وصدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدّلوا تبديلا ، ويعلم الصّابرين فى البأساء والضّرّاء وحين البأس ، الّذين يصبرون ويصابرون ويرابطون فى سبيله جلّ وعلا ويتّقونه جلّ وعلا حقّ تقاته ؟

إنّ من وسائل علمه جلّ وعلا علم ظهورِ الّذين جاهدوا منكم والصّابرين أن يبتليكم فى أحد وفى غير أحد . إنّ الابتلاء يظهر به المؤمن من غير المؤمن ويعرف ويتمّيز . وقد ميّزت تجربة أحد المريرة المؤمنين عن غيرهم فتألق الإيمان بهيّاً واندحر النّفاق خزيًا : «ونصب : ويعلم الصّابرين على الصّرف . والصّرف أن يجتمع فعلان ببعض حروف النّسق وفى أوّله مالا يحسن إعادته مع حرف النّسق فينصب الّذى بعد حرف العطف على الصّرف لأنّه مصروفٌ عن معنى الأوّل ولكن يكون مع جحدٍ أو استفهامٍ أو نهي فى أوّل الكلام ، وذلك كقولهم : لا يسعُنى شيءٌ ويضيقَ عنك . لأنّ لا الّتى مع يسعنى لا يحسن إعادتها مع قوله : ويضيق عنك ، فلذلك نصب والقرّاء فى هذا الحرف على النّصب . وقد روي عن الحسن أنّه كان يقرأ : ويعلمِ الصّابرين . فيكسر الميم من يعلم لأنّه كان ينوى جزمها على العطف به على قوله : ولمّا يعلم الله» (١)

(١) تفسير الطّبريّ ٧١/٤

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

سبب النّزول :ـــ

كان قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ممّن لم يشهد بدراً يتمنون قبل أُحُدٍ يوماً مثل يوم بدر فيُبْلوا الله من أنفسهم خيراً وينالوا من الأجر مثل مانال أهل بدر . فلمّا كان يوم أحد فرّ بعضهم وصبر بعضهم حتّى أوفى بما كان عاهد الله قبل ذلك ، فعاتب الله من فرّ منهم فقال : ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه الآية ، وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم (١)

تذكّر الآية الكريمة الّذين يتمنّون الموت كي ينالوا ثواب الشّهداء السّعداء والمجاهدين النّجباء فى بدر وتعاتب الّذين فرّوا من ميدان المعركة فى أُحُدٍ فَلَمْ يصبروا ولم يصابروا . لقد كان قومٌ من الصّحابة رضوان الله عليهم أجمعين من الّذين لم يشهدوا بدراً يتمنّون لقاء العدوّ كي يكون لهم ثواب الحصول على الشّهادة بلقاء أسباب الموت وثواب الجهاد فى سبيل الله تعالى . وبسبب مخالفة بعض الرّماة أمر النّبيّ ﷺ ومغادرتهم أماكنهم والتفاف جيش المشركين من وراء جيش المسلمين تحوّل النّصر الّذى يحبه المؤمنون والّذى أراهم الله تعالى إيّاه إلى هزيمةٍ أليمة ، وجزع بعضهم لما أصابه وأصاب إخوانه المؤمنين من قتلٍ وجراح . وهاهي ذي الآية الكريمة تعاتب الّذين جزعوا للقرح الّذى أصابهم بينما هم الّذين كانوا يتمنّون الموت من قبل أن يلقوه . إنّهم فى أحدٍ قد رأوا الموت وهم ينظرون إليه بأعينهم فلماذا الجزع وهم يرون الموت الذى كانوا يتمنّونه من قبل أن يلقوه ولماذا الهلع وهم ينظرون بأعينهم إلى الموت الّذى طال تمنّيهم له وانتظارهم حضور أسبابه .

كان المنتظر من الّذين أصابهم الهلع والفزع والجزع أن يصبروا ويصابروا حتّى يتحقّق لهم إحدى الحسنيين ، الشّهادة ومن ثمّ يلحقون بالمؤمنين الّذين صدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه ، أو النّصر الّذى عمل من أجله المجاهدون فى سبيل الله تعالى الّذين ينتظرون أن ينالوا شرف الشّهادة الّذى ناله أولئك المؤمنون الّذين صدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه . قال

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٧١

تعالى (١) «ياأيّها الذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زَحْفاً فلا تولّوهم الأدبار . ومن يولّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلّا متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير» وقال تعالى (٢) : «ياأيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا أنّ الله مع الصّابرين »

«وقد ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : لا تتمنّوا لقاء العدوّ وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا وأعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف» (٣)

(١) سورة الأنفال ١٥ ، ١٦
(٢) سورة الأنفال ٤٥ ، ٤٦
(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٩/١

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

العقِب : مؤخّر الرّجل . ورجع على عَقِبه إذا انثنى راجعاً ، وانقلب على عقبيه نحو رجع على حافرته ، ونحو : ارتدّا على آثارهما قصصا ، وقولهم : رجع عودُه على بَدْئه . قال : ونُرَدُّ على أعقابنا . انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه . ونكص على عقبيه . فكنتم على أعقابكم تنكِصون (١)

وضع المصطفى ﷺ فى أحدٍ خطّةً عسكريّةً ناجحة ، ومن مقوّمات تلك الخطّة حماية وراء الجيش بالرّماة وكانوا خمسين بقيادة عبدالله بن جبير وأمرهم المصطفى ﷺ أن يرموا بالنّبل خيل المشركين إن أتت من وراء المسلمين لأنّ الخيل لا تثبت للنبال وأمرهم بعدم مغادرة مواقعهم على الجبل سواء كان النّصر للمسلمين أو للمشركين حتّى ولو خطّفت الطيّر المسلمين ، وانتصر المسلمون ولم يلتزم الرّماة أو بعضهم على وجه الدّقّة بتنفيذ أمر النّبيّ ﷺ فتركوا أماكنهم وأدرك خالد نقطة الضّعف هذه وكان المشركون قد انهزموا فانبرى من وراء جيش المسلمين وقضى على الفئة القليلة من الرّماة وهاجم المسلمين من خلفهم وانضمّ إلى خالد فلول المنهزمين من المشركين وتحوّل بإذن الله تعالى نصر المسلمين إلى هزيمة ، واستشهد سبعون . يقول الطبريّ (٢) فى سبب نزول الآية الكريمة : «فأتى ابن قميئة الحارثيّ أحد بنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورَباعيّته وشجّه فى وجهه فأثقله وتفرّق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصّخرة فقاموا عليها ، وجعل رسول الله ﷺ يدعو النّاس : إليّ عباد الله إليّ عباد الله ، فاجتمع إليه ثلاثون رجلًا فجعلوا يسيرون بين يديه فلم يقف أحدٌ إلّا طلحة وسهل بن حنيف فحماه طلحة فرُمي بسهمٍ فى يده فيبست يده ، وأقبل أبيّ بن خلف الجمحيّ وقد حلف ليقتلنّ النّبيّ ﷺ فقال النّبيّ ﷺ : بل أنا أقتلك ، فقال : ياكذّاب أين تفرّ فحمل عليه فطعنه النّبيّ ﷺ فى جنب الدّرع فجرح جرحاً خفيفاً فوقع يخور

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٣٤٠
(٢) تفسير الطّبريّ ٧٤/٤ وانظر السيرة النبوية ٢٧/٣

خوران الثّور فاحتملوه وقالوا : ليس بك جراحة قال : أليس قال لأقتلنّك ؟ لو كانت لجميع ربيعة ومضر لقتلتهم ولم يلبث إلّا يوماً أو بعض يوم حتّى مات من ذلك الجرح .

وفشا فى النّاس أنّ رسول الله ﷺ قد قتل فقال بعض أصحاب الصّخرة : ليت لنا رسولًا إلى عبدالله بن أبيّ فنأخذ لنا أمنةً من أبي سفيان ، ياقوم إنّ محمّداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم . قال أنس بن النّضر : ياقوم إن كان محمّد قد قتل فإنّ ربّ محمّد لم يقتل فـقاتلوا على ماقاتل عليه محمّد ﷺ : اللّهمّ إنّى أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء ثمّ شدّ بسيفه فقاتل حتّى قتل . وانطلق رسول الله ﷺ يدعو النّاس حتّى انتهى إلى أصحاب الصّخرة فلمّا رأوه وضع رجلٌ سهماً فى قوسه فأراد أن يرميه فقال : أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوا رسول الله ﷺ حيّاً وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أنّ فى أصحابه من يمتنع . فلمّا اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ ذهب عنهم الحزن فأقبلوا يذكرون الفتح ومافاتهم منه ويذكرون أصحابه الذين قتلوا . فقال الله عزّ وجلّ للّذين قالوا إنّ محمّداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم : وما محمّد إلّا رسول .....» ولا ننسى أنّ فى أنس بن النّضر وأمثاله من الشّهداء السّعداء نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب (١) : «من المؤمنين رجالٌ صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدّلوا تبديلا» .

تبيّنّا أنّ جزع المسلمين لهزيمة أحد كان شديدا ، وقد كشفت الشّدّة عن إيمان بعضهم الضّعيف للدّرجة الّتى اقترب فيها من درجة النّفاق أو كاد يقترب وبخاصّةٍ حينما ذاع فى النّاس أنّ النّبيّ ﷺ قد قتل . والآية الكريمة تبيّن للّذين جزعوا أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ ليس إلّا رسولًا وواحداً من البشر الّذين يجوز عليهم جميعاً الموت أو القتل ، وقد خلت من قبله عليه الصّلاة والسلام الرّسل ومضت الأنبياء ملبّية نداء ربّها جلّ وعلا . وكثيرٌ من هؤلاء من مات ، وقليلٌ من هؤلاء من قتل ، وإنّ ماجاز على كلّ الرّسل والأنبياء السّابقين من موتٍ أو قتلٍ يجوز عليه ﷺ ولكنّه جلّ وعلا قد عصمه عليه الصّلاة والسّلام من النّاس . والآية الكريمة فى استفهامها الإنكاريّ تقدّم حال الموت الأقرب احتمالًا وتؤخّر القتل وذلك فى القول : «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» ؟ وقد عرفنا معنى العقب وأنّه مؤخّر الرّجل . وحينما يكون ثمّة انقلابٌ على العقب فى مجال المحسوسات فذلك معناه فى مجال المعنويّات الارتداد إلى الكفر والعياذ بالله . والمعروف أنّ من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من كان حديث عهدٍ بالإسلام أي حديث عهد بالكفر . وفى الاستفهام إنكارٌ للكفر وللعودة السّريعة إليه . وقد تبيّنّا المعنى الواحد الّذى يؤدّى إليه

(١) الآية ٢٣ وانظر دراستنا للآية الكريمة في دراستنا المتأملّة لسورة الأحزاب ص ٢٠٦ فما بعدها وعنوانها : تأملات في سورة الاحزاب .

القول : انقلب على عقبيه ، ولهذا القول علاقةٌ بالآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، والقول : رجع على حافرته ، ولهذا القول علاقةٌ بالآية الكريمة العاشرة من سورة النّازعات : «يقولون أئنّا لمردودون فى الحافرة» (١) وإنّ كلّا من القولين ذو علاقة بالعودة الفوريّة من ذات الطّريق الّذى قدم منه المخاطب . ففى الآية الكريمة إنكارٌ على من يعود إلى الكفر سريعاً لمجرّد موت النّبيّ ﷺ أو قتله مع العلم بكونه عليه الصّلاة والسّلام واحداً من البشر يصحّ فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام مايصحّ فى حقّهم لولا عصمة الله تعالى له من النّاس .

والآية الكريمة تبيّن أنّ من ينقلب على عقبيه ويرتدّ من الإسلام إلى الكفر فلن يضرّ الله شيئاً لأنّ الله سبحانه تعالى هو الغنيّ ولأنّ العباد هم الفقراء ولأنّ ضرر الارتداد عائد على المرتدّين وحدهم فإنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار .

وفى مقابل الإنكار على من فكّر فى الانقلاب على عقبيه أوهمّ به من المنافقين ثمّة ثناءٌ من الله تعالى عاطرٌ على الشّاكرين لله سبحانه وتعالى الصّابرين فى السّرّاء والضّرّاء . إنّ ثواب هؤلاء جزيل مقابل عقاب أولئك الأليم .

روى البخاريّ عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنّ أبابكر رضى الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح (٢) حتّى نزل فدخل المسجد فلم يكلّم النّاس حتّى دخل على عائشة فتيمّم رسول الله ﷺ وهو مُغطّى بثوب حبرة (٣) فكشف عن وجهه ثمّ أكبّ عليه (٤) وقبّله وبكى ثمّ قال : بأبى أنت وأمّى والله لا يجمع الله عليك موتتين أمّا الموتة الّتى كتبت عليك فقد متّها . وقال الزّهريّ وحدّثنى أبوسلمة عن ابن عبّاس أنّ أبابكر خرج وعمر يكلّم النّاس وقال : اجلس ياعمر . قال أبوبكر : أمّا بعد ، من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قدّ مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت . قال الله تعالى «وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل .. إلى قوله : وسيجزى الله الشّاكرين . قال : فوالله لكأنّ النّاس لم يعلموا أنّ الله أنزل هذه الآية حتّى تلاها أبوبكر ، فتلاها منه النّاس كلّهم ، فما أسمع بشراً من النّاس إلّا يتلوها .

وأخبرنى سعيد بن المسيّب أنّ عمر قال : والله ماهو إلّا أن سمعت أبابكر تلاها فعرفت حتى ماتقلّنى رجلاي وحتّى هويت إلى الأرض (١)

(١) انظر دراستنا للآية الكريمة وللفظ الحافرة في تأمّلات في سورة النّازعات ص ٣٥ فما بعدها
(٢) السّنح بضمّ السّين موضعٌ قرب المدينة كان به مسكن أبى بكر رضي الله عنه
(٣) حبرة بفتح الحاء وكسرها : ضربٌ من برود اليمن وملاءة سوداء
(٤) أكبّ عليه : أقبل عليه وانحنى
(٥) تفسير ابن كثير ٤٠٩/١ .

وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

الكتاب فى الأصل مصدر ثمّ سمّي المكتوب فيه كتاباً . والكتاب فى الأصل اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه . وفى قوله : يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السّماء ، فإنّه يعنى صحيفةً فيها كتابة ولهذا قال : ولو نزّلنا عليك كتاباً فى قرطاس (١)

الأجل : المدّة المضروبة للشّيء ، قال تعالى : لتبلغوا أجلًا مسمّى ، أيّما الأجلين قضيت . ويقال : دَيْنه مؤجّل وقد أجّلته جعلت له أجلًا . ويقال للمدةّ المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال : دنا أجله عبارةٌ عن دنوّ الموت . وأصله استيفاء الأجل مدّة الحياة (٢)

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ واحدٌ من رسل الله تعالى من البشر الّذين يصحّ فى حقّهم كلّ ماكتبه الله تعالى لهم ممّا يصحّ فى حقّ البشر ومن ذلك الموت أو القتل بإذن الله تعالى . وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن أنّه ماكان لأيّ نفسٍ من النّفوس البشريّة سواءٌ كانت نفس رسول أو غيره أن تموت إلّا بإذن الله تعالى وبعد استيفاء أجلها والانتهاء إلى المدّة المضروبة حدّاً لنهاية حياة هذه النّفس أو تلك . كتب الله سبحانه وتعالى ذلك كتاباً مؤجّلًا وقدّره تقديراً محدّداً ، فإذا جاء أجل نفسٍ من النّفوس وحان انقضاء المدّة المضروبة والوقت المحدّد والأجل المعلوم لا تستأخر ساعةً ولا تتقدّم . وعليه فلا معنى للفرار يوم أحدٍ مثلًا ولا معنى للجزع والهلع لموت نفسٍ من النّفوس إيّاً كانت لأنّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ لايموت ولأنّه جلّ وعلا قد أكمل الدّين الّذى بعث به محمّد بن عبدالله ﷺ والّذى تكفّل جلّ وعلا بإظهاره على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانيّ ص ٤٢٣
(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانيّ ص ١١

والآية الكريمة تقرّر أنّ من أراد بعمله ثواب الدّنيا والجزاء العاجل فيها ولم يرد بعمله الطيّب وجه الله تعالى – والله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلّا ما كان طيّبا وأريد به وجهه الكريم – فسوف يؤتيه الله تعالى من الدّنيا ما قسمه جلّ وعلا له منها وليس له في الآخرة من نصيب . أما من أراد بأعماله الطيّبة وجه ربّه الأعلى ورغب في ثواب الآخرة فسوف يؤتيه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة من ثوابها ، ووراء ذلك يصحّ أن يجمع له ثواب الدّنيا العاجل إضافةً إلى ثواب الآخرة الآجل فلا معقّب لحكمه جلّ وعلا ولا رادّ لفضله .

وتثنى الآية الكريمة على الشّاكرين الّذين يؤمنون بالله تعالى ويتوكّلون عليه وتعدهم بالثّواب الجزيل والخير العميم .

وللآية الكريمة الكثير من الأشباه والنظائر ومن ذلك قوله تعالى (١): (من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا. كلّا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك ، وما كان عطاء ربّك محظورا . انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا) وقوله تعالى (٢) (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب).

(١) سورة الإسراء ١٨ – ٢١
(٢) سورة الشّورى ٢٠

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

وكأين من نبيّ معناه : وكم من نبيّ (١)

ربّيون : ربّانيّون . والرّبّانيّ ، قيل منسوبٌ إلى الرّبّان . ولفظ فعلان من فَعِل يُبْنى نحو عطشان وسكران وقلّما يُبْنى من فَعَل وقد جاء نعسان . وقيل هو منسوبٌ إلى الرّبّ الّذى هو المصدر وهو الّذى يربُّ العلم ، أي ينشئه حالًا فحالًا ، كالحكيم . وقيل : منسوبٌ إليه ومعناه يربّ نفسه بالعلم . وكلاهما فى التّحقيق متلازمان لأنّ من ربّ نفسه بالعلم فقد ربّ العلم ، ومن ربَّ العلم فقد ربّ نفسه به . وقيل : هو منسوبٌ إلى الرّبّ أي الله تعالى فالرّبّانيّ كقولهم إلٰهيّ ، وزيادة النّون فيه كزيادته فى قولهم : لَحْيانيّ وجِسْمانيّ : قال عليّ رضى الله عنه : أنا ربّانيّ هذه الأمّة (٢) عن ابن عبّاس : وكأيّن من نبيّ قتل معه ربّيون كثير . قال : علماء كثير (٣) وقال الحسن : فقهاء علماء (٤)

فماوهنوا : الوهن ضعفٌ من حيث الخَلْق أو الخُلُق (٥) أى فما عجزوا ولا نكلوا (٦)

(١) تفسير الطّبريّ ٧٦/٤
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ١٨٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٧٧/٤ وأنظر تفسير الطّبريّ ٢٣٣/٣ وواحد الرّبّانيّين ربّى السيرة النبوية ٦٥/٣
(٤) تفسير الطّبريّ ٧٧/٤ وانظر دراستنا للآية الكريمة ٧٩ ، ٨٠ من سورة آل عمران ٣٣٠/٣
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٥٣٥
(٦) أنظر تفسير الطّبريّ ٧٨/٤

وماستكانوا : يعنى وماذلّوا فيتخشّعوا لعدوّهم (١)

تبيّن الآية الكريمة أنّه كان ثمّة عددٌ كبيرٌ من الأنبياء السّابقين على خاتم الأنبياء والمرسلين الّذين قاتل معهم كثيرٌ من الرّبّيّين وأنّه جاهد فى سبيل الله تعالى فى صفوف هؤلاء النّبيّين جمعٌ غفيرٌ من الرّبّانيّين العلماء الحلماء الفقهاء الحكماء الّذين تفانوا فى عبادة ربّهم جلّ وعلا وأخلصوا العمل فى سبيل مرضاته تعالى فربّوا أنفسهم تربيةً دينيّةً صحيحة وربّوا الآخرين تربيةً دينيّةً صحيحةً وتوّجوا عبادتهم لله تعالى ــ بالمعنى الصّحيح الواسع للعبادة ــ بالجهاد فى سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس . وبالرّغم ممّا أصاب بعض هؤلاء الرّبّيّين من قتلٍ فى سبيله جلّ وعلا ، ومن جراحٍ وآلام ونصبٍ لبعضهم الآخر ، فإنّ من ينتظر نحبه من هؤلاء الرّبّيّين الّذين صدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه ، لم يتسرّب إليهم شيءٌ من الوهن والعجز بل واصلوا جهادهم فى سبيل الله تعالى واستمرّوا فى بذل التّضحيات ، ولم يضعفوا عن مقارعة أعداء الله تعالى بكلّ الوسائل وبخاصّةٍ فى ميدان القتال ، ولم يستكينوا لعدوّهم ولم يذلّوا له وإن كان أكثر منهم عدداً وعدّة لأنّ النّصر من عند الله تعالى وليس بكثرة العدد والعدّة ولأنّ الله سبحانه وتعالى مولى الّذين آمنوا أمّا الكافرون فلا مولى لهم .

وتقرّر الآية الكريمة حبّ الله تعالى للصّابرين فى كلّ المجالات ، وبخاصّةٍ فى ميدان القتال ، وفى مقدّمة الّذين يحبّهم الله تعالى الرّبّيّون الّذين أثنت الآية الكريمة عليهم ثناءً عاطرا .

وفى الآية الكريمة تعريضٌ بغير الصّابرين من المسلمين فى غزوة أحد وبخاصّةٍ الّذين وهنوا وضعفوا واستكانوا حينما ذاع فى النّاس نبأ قتله ﷺ .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٧٨

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

وماكان قولهم . يقول الطّبريّ (١) : «والقراءة الّتى هي القراءة فى قوله : وماكان قولهم ، النّصب لإجماع قرّاء الأمصار على ذلك نقلًا مستفيضاً وراثةً عن الحجّة . وإنّما اختير النّصب فى القول لأنّ : إلّا أنْ ، لا تكون إلّا معرفةً فكانت أولى بأن تكون هي الاسم دون الأسماء الّتى قد تكون معرفةً أحياناً ونكرةً أحياناً ، ولذلك اختير النّصب فى كلّ اسم ولي كان إذا كان بعده أنْ الخفيفة كقوله : وماكان جواب قومه إلّا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه . قوله : ثمّ لم تكن فتنَتُهُمْ إلّا أن قالوا . فأمّا إذا كان الّذى يلي كان اسماً معرفةً والّذى بعده مثله فسواءٌ الرّفع والنّصب فى الّذى ولي كان»

وإسرافنا : الإسراف الإفراط فى الشّىء ، يقال منه : أسرف فلانٌ فى هذا الأمر إذا تجاوز مقداره فأفرط (٢) عن ابن عبّاس فى قول الله : وإسرافنا فى أمرنا قال : خطايانا (٣)

أثنت الآية الكريمة السّابقة على الرّبّيين من حيث أفعالهم ، وهذه الآية الكريمة التّالية تثنى عليهم من حيث أقوالهم . والآية الكريمة تقرّر أنّ الرّبّيين ليس لهم فى كلّ الأوقات والأحوال من قول سوى أن يقولوا ياربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . والملاحظ أنّ قول الرّبّيين ذو شقّين . الشّقّ الأوّل ذو علاقةٍ بذنوبهم

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٧٥
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٧٨
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٧٩

الّتى ارتكبوها وخطاياهم الّتى أتوها . إنّ الرّبيّين المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى يربطون بين مايصيبهم من مصائب وهم يجاهدون فى سبيل الله تعالى وبين الذنّوب الّتى يصحّ أن يكونوا قد ارتكبوها والخطايا الّتى يصحّ أن يكونوا قد أتوها ومن ثمّ هم يسألون الله سبحانه الّذى لا يغفر الذّنوب إلّا هو أن يغفر لهم ذنوبهم بل إنّهم ليطمعون فى أن يغفر لهم ربّهم الّذى يعلمون أنّه هو الغفور ، ليطمعون فى أن يغفر لهم خطاياهم . ومن الجائز أن لا يكون ثمّة سوى لمم الذنوب التى لايكاد ينجو منها إلا من عصم الله ، ومع ذلك فإن هؤلاء الرّبّيين يسألون الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم ، وهم فى هذا التّواضع الجمّ وهضم النّفس الواضح ليلقون على المسلمين درساً فى اليقظة والحذر وعدم الغفلة .

وعلى غرار المسألتين اللّتين يتكوّن منهما الشّقّ الأوّل ، وعلى غرار ترتّب المسألة الثّانية على الأولى ، فغفران الخطايا يعنى غفران الذّنوب بفضل الله تعالى ومنّه ، يتكوّن الشّقّ الثّانى . المسألة الأولى سؤال الله تعالى تثبيت الأقدام فى ميدان القتال جهاداً فى سبيل الله تعالي .

والمسألة الثّانية المبنيّة على الأولى سؤال الله تعالى النّصر على القوم الكافرين . وإذا كنّا تبيّنا في المسألتين الأوليين شيئاً من هضم النّفس فإنّا نتبيّن فى المسألتين الأخريين توكّل الرّبّيّين المطلق على الله تعالى ، فلا حول لهم ولا قوّة ، بعد أخذهم بكلّ أسباب القوّة ، إلا بالله تعالى :« ومن يتوكّل على الله فهو حسبه »(١)

وإذا كنّا نتبيّن فى الآية الكريمة نوعاً من التّعريض بالمنهزمين فى أحد ، فإنّ فيها دروساً على المسلمين أن ينتفعوا بها فى كلّ زمانٍ ومكان .

(١) سورة الطلاق ٣

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد أثنت على الرّبّيين بسبب أقوالهم الّتى تجلّى فيها تواضعهم الجمّ والتّوكّل الكامل على الله تعالى ، وإذا كانت الآية الكريمة قبلها قد أثنت على الرّبّيين بسبب أفعالهم الّتى تجلّى فيها صبرهم وقد ختمت الآية بتبيين حبّ الله تعالى للصّابرين وذلك فى القول : «والله يحبّ الصّابرين» فإنّ فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبييناً لحبّ الله تعالى المحسنين وذلك فى القول : «والله يحبّ المحسنين» وبعد أن بيّنت ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة الّذى كان من نصيبهم . وبهذا تحقّق مجموعةٌ من النّعوت الفريدة فى هؤلاء الرّبّيين .

ونستطيع أن نفهم ثواب الدّنيا بأنّه النّصر الّذى سألوا الله سبحانه وتعالى أن يمتنّ عليهم به ، ويرتبط بالنّصر على الأعداء التّمكين للدّين . وبهذا نتبيّن علاقةً متينةً بين الآية الكريمة وبين قوله تعالى فى سورة النّور (١) : «وعَدَ الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

ونستطيع أن نفهم حسن ثواب الآخرة بأنّه الجنّة ونعيمها (٢) . ولعلك فطنت إلى خلوّ ثواب الدّنيا من لفظة «حُسْن» الّتى جاءت فى حقّ ثواب الآخرة ، ويصحّ أن يفهم من ذلك أنّ ثواب الدّنيا مهما كان عظيماً فإنّه لا يقاس بثواب الآخرة الّذى وصف بأنّه حسن ، ففى الجنّة مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولعلّك تبيّنت أنّ لفظة حسن فى القول : «وحسن ثواب الآخرة» وطّأت للثّناء على الإحسان والمحسنين فى القول : «والله يحبّ المحسنين» .

إنّ مظاهر الحسن شكلًا ومضموناً تتتابع وتتداعى .

(١) الآية ٥٥
(٢) أنظر تفسير الطّبرىّ ٤/٨٠

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ ١٤٩

حذّرت الآية الكريمة تمام المائة من هذه السّورة المؤمنين من طاعة فريقٍ من أهل الكتاب . قال تعالى : «ياأيها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين» ونهت الآية الكريمة الثامنة عشرة بعد المائة المؤمنين عن اتّخاذ بطانةٍ من غير المؤمنين . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تسير فى صياغتها وتحذيرها المؤمنين من طاعة الكافرين على غرار الآية تمام المائة . ونستطيع أن نفهم الكافرين بأنّهم كلّ الّذين كفروا برسالة محمّد بن عبدالله ﷺ وبما جاء به من عند ربّه جلّ وعلا . وبذلك يشمل التّحذير اليهود والنّصارى والكفّار والمنافقين . وبالنّظر إلى الهدف الّذى يسعى إليه أولئك الكافرون فإنّا نتبيّن أنّه ارتداد المسلمين عن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، لا سمح الله .

والآية الكريمة تبيّن أنّ المؤمنين لو فرض أنّهم اتّخذوا بطانةً من غير المؤمنين وأطاعوا الكافرين فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه فإنّ المؤمنين سيجدون أنفسهم ــ لاسمح الله ــ قد ارتدّوا عن دين الإسلام لأنّ هذا هو الهدف الّذى يسعى إليه خصوم الإسلام والّذى لا يرضيهم سواه بنصّ القرآن الكريم . فلنتخيّل فريقاً من المؤمنين يطلب نصيحة زعيمٍ من زعماء الكفر كأبيّ بن خلف أو شيخٍ من شيوخ النّفاق كعبدالله بن أبيّ ابن سلول ، فماالّذى ينتظر من هذا أو ذاك ؟ إنّ الآية الكريمة قد نصّت على الهاوية الّتى يحرص أولئك الكافرون على قذف المؤمنين فيها ، أن يرتدّوا على أعقابهم فيهجروا الإسلام ويعودوا كافرين مشركين وينقلبوا خاسرين قد خسروا دينهم ودنياهم ــ لاسمح الله ــ إنّ الآية الكريمة فى طريقتها التّحذيريّة الكاشفة عن حقيقة نوايا الكافرين العدوانيّة المبصّرة بالعاقبة الوخيمة الّتى يحرص الكافرون على أن يصير المؤمنون إليها لتنهى المؤمنين نهياً شديداً عن اتّخاذ الأسباب الّتى تُفْضى بهم ــ لاسمح الله ــ إلى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ألا وهو الإشراك مع الله تعالى غيره وذلك بالارتداد عن دين الإسلام بسبب طاعتهم للّذين كفروا .

إنّ طاعة الكافرين أمرٌ منهيٌّ عنه ، وإنّ اتّخاذهم بطانةً أمرٌ منهيٌّ عنه هو الآخر ، وإنّ على المسلمين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ أن يستفيدوا من هذه الدّروس القرآنيّة وأن يترجموها إلى عمل ففى ذلك نجاتهم وفوزهم ، بإذن الله تعالى ، فى الدّنيا والآخرة .

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (١٥٠)

بل الله مولاكم : وليّكم وناصركم على أعدائكم الّذين كفروا (١)

حذّرت الآية الكريمةالسّابقة المؤمنين من اتّخاذ الكافرين أولياء يريد المؤمنون منهم النّصيحة فيغشّونهم ويخدعونهم حتّى ينتهى الأمر بالمؤمنين إلى مالا يرضى الكافرين سواه وهو الارتداد عن دين الإسلام ـ لاسمح الله ـ والآية الكريمة فى نهيها المؤمنين عن طاعة الكافرين تحذّرهم من طاعة الكافرين . فاذا جاءت الآية الكريمة التّالية الّتى نحن بصددها مبتدئةً بحرف العطف «بل» الّذى يفيد الإضراب بمعنى السّكوت عما ذكر قبلها واعتباره فى حكم غير الموجود أساساً يكون معنى ذلك الحثّ فى المقابل على طاعة الله تعالى . وتنص الآية الكريمة على كونه جلّ وعلا هو مولى المؤمنين ، المتولّى شئونهم والّذى ينصرهم على أعدائهم الكافرين .

ولما كان من متعلّقات المولى تولّى أمور مولاه ونصره، فقد كان فى تذييل الآية الكريمة «وهو خير النّاصرين» إفصاحٌ بالنُّصرة المفهومة ضمناً من ذكر المولى ، وتجاوزٌ بالنُّصرة إلى أعلى قممها وأحسن صورها وهو مايستفاد من لفظة «خير» الّتى أصلها اسم تفضيل «أخير» فحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال .

إنّ من لديه أدنى مُسْكةٍ (٢)من عقلٍ لا يطيع أعداءه الّذين يحرصون على إيصال أكبر الأذى إليه بل يطيع الله سبحانه وليّه وولىّ كلّ مؤمن وناصره وهو جلّ وعلا خير معين وخير ناصر لاربّ غيره ولا معبود سواه .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/ ٨٠

(٢) مُسْكة ، بضم الميم وسكون السين : بقيّة

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

فطن العلماء بشأن الرّعب إلى ثلاثة معانٍ ، الخوف ، والامتلاء ، والانقطاع (١) وقد عبّر الأصفهاني (٢) عن هذه المعاني بالقول : «الرّعب : الانقطاع من امتلاء الخوف ... قال تعالى : وقذف في قلوبهم الرّعب . وقال : سَنُلْقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب ولمُلِئت منهم رعبا .

ولتصوّر الامتلاء منه قيل : رَعَبْتُ الحوض ملأتُه ، وسَيْلٌ راعبٌ يملأ الوادي ، وباعتبار القطع قيل : رَعَبْت السَّنام قطعتُه» ويقال للقطعة من السّنام رُعبوبة . وتُسمّى الشَّطْبة من النّساء رُعبوبة ، تشبيهاً لها بقطعة السّنام . ويقال : سنامٌ مرعوبٌ إذا كان يقطر دسماً (٣)

سلطاناً : حجّة (٤)

وبئس مثوى الظّالمين : وبئس مقام الظالمين (٥)

ثبت في الصّحيحين عن جابر بن عبدالله أنّ رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي ، نُصِرْت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأحلّت لي الغنائم ، وأعطيت الشّفاعة ، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة»(٦)

هذا الحديث النّبويّ الشّريف ذو علاقةٍ متينةٍ بمثل هذه الآية الكريمة الّتي تقرّر أنّ ربّ العزّة سيُلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب ابتداءً بكفّار قريش الّذين فعلوا بالمسلمين في أحدٍ مافعلوا وسيقذف في صدور المشركين الخوف الشّديد الّذي ليس عليه من مزيد والّذي سيملأ بإرادة الله تعالى جوانح الكافرين . وهذا وعدٌ من الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا . ومن مظاهر الخوف الّذي حلّ بالمشركين بقيادة أبي سفيان أنّهم حينما فكّروا في العودة إلى المدنية المنوّرة كي يستأصلوا شأفة المسلمين جبنوا عن العودة بسبب ماقذف الله تعالى في قلوبهم من رعب ، وفي المقابل ثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت وقوّى قلوبهم وهاهو ذا المصطفى ﷺ في اليوم الثّاني من قرح أحدٍ الّذي أصابهم يطارد أباسفيان

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة : (رعب) ٢/٤١٠

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ١٩٧

(٣) معجم مقاييس اللّغة : (رعب) ٢/٤١٠

(٤) تفسير الطّبريّ ٤/٨١

(٥) تفسير الطّبريّ ٤/٨١

(٦) تفسير ابن كثير ١/٤١١

والمشركين حتّى انتهى بمن معه الّذين أصابهم القرح بالأمس وحدهم إلى حمراء الأسد وهى على بعد ثمانية أميالٍ من المدينة المنوّرة فأقام بها عليه الصّلاة والسّلام الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة (١)

والآية الكريمة تبيّن السَّبب الّذى من أجله سيلقى سبحانه وتعالى الرّعب فى قلوب الّذين كفروا . إنّ السَّبب هو أنّهم أشركوا بالله تعالى مالم ينزّل به سلطاناً ولا حجة ولا دليلا . كما تبيّن الآية الكريمة مصير القوم . إنّ النّار مأوى القوم ومآلهم . وتذمّ الآية الكريمة المقام الّذى سيأوى إليه فى النّار أولئك الظالمون . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تخلع على القوم صفة إضافيّةً إلى صفة الكفر ألا وهى صفة الظّلم . إنّهم بإشراكهم مع الله تعالى غيره قد وضعوا العبادة فى غير موضعها فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم .

والحقيقة أنّا نودّ الوقوف قليلًا عند لفظة الرّعب واستعمالاتها فى القرآن الكريم . لقد جاءت هذه اللّفظة فى القرآن الكريم مرّاتٍ خمساً . واستعمال اللّفظة فى آية سورة الكهف عام لأنّ الخطاب يشمل كلّ النّاس وذلك فى قوله عزّ من قائل (٢) : «وتَحْسَبُهُمْ أيقاظاً وهم رقود ، ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشّمال وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فِراراً ولمُلِئْتَ منهم رُعْباً»

فإذا تجاوزنا هذا الاستعمال الواحد العامّ للفظ الرّعب إلى المواضع الأخرى الأربعة فى القرآن الكريم تبيّنّا أنّ هذا اللّفظ يستعمل مرّتين فى حقّ اليهود ومرّتين فى حقّ كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم ، بمعنى أنّ اللّفظ لا يستعمل فى حقّ المؤمنين بحالٍ من الأحوال ولكن فى حقّ غير المؤمنين .

وهاتان هما المرّتان اللّتان تستعمل فيهما اللّفظة فى حقّ المشركين . جاء فى سورة آل عمران قوله تعالى : «سنُلْقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب» وجاء فى سورة الأنفال(٣) قوله تعالى : « إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان» والحديث هنا عن غزوة بدر يوم الفرقان .

(١) انظر السّيرة النّبوية لابن هشام ٥٢/٣ فما بعدها
(٢) سورة الكهف ١٨
(٣) الآية ١٢

وهاتان هما المرّتان اللّتان تستعمل فيهما اللّفظة فى حقّ كافرى يهود . جاء فى حقّ يهود بنى قريظة قوله تعالى فى سورة الأحزاب (١) : «وأنزل الّذين ظاهرهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقاً تقتُلون وتأسِرون فريقا» وجاء فى حقّ يهود بنى النّضير قوله تعالى فى سورة الحشر (٢) : «هو الذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر . ماظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يُخْربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار» .

(١) الآية ٢٦
(٢) الآية ٢

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾

إذ تحسّونهم : إذ تقتلونهم . يقال منه : حسّه يحسّه حسّاً إذا قتله (١) وللعلماء اجتهاداتٌ لطيفة فى دلالة هذه الجملة على القتل . إنّ الحاء والسّين تدلّ فى أحد معنييها على غلبة الشّىء بقتلٍ أو غيره ، ومن هنا كان الَحسُّ بمعنى القتل ، قال الله تعالى : إذ تحسّونهم بإذنه ، ومن ذلك الحديث : حُسّوهم بالسَّيف حسّاً ، وفى الحديث فى الجراد : إذا حَسَّه البرد ، والحسيس : القتيل (٢) والحاسّة : القوة الّتى بها تدرك الأعراض الحسّيّة (٣) ويقال للمشاعر الخمس الحواسّ ، وهي : اللّمس والذّوق والشّمّ والسّمع والبصر (٤) فكيف أصبح مثل قوله تعالى : تحسّونهم بمعنى تقتلونهم ؟ إنّ من معانِي تحسّونهم تصيبون حواسّهم وذلك على غرار القول : «كبدتُه وفأدتُه . ولمّا كان ذلك قد يتولّد منه القتل عُبّر به عن القتل فقيل : حَسَسْتُه أي قتلته» (٥)

(١) تفسير الطّبريّ ٨٣/٤
(٢) معجم مقاييس اللّغة (حسّ) ٩/٢
(٣) معجم الرّاغب الأصفهانيّ ص ١١٦
(٤) معجم مقاييس اللّغة (حسّ) ٩/٢
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ١١٦

حتّى اذا فشلتم : حتّى إذا جبنتم وضعفتم (١)

وتنازعتم فى الأمر : اختلفتم (٢) فى أمر نبيّ الله ﷺ (٣)

وعصيتم : وخالفتم نبيّكم فتركتم أمره وماعهد إليكم . وإنّما يعنى بذلك الرّماة الّذين كان أمرهم ﷺ بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشّعب بأُحد بإزاء خالد بن الوليد ومن كان معه من فرسان المشركين (٤)

من بعد ماأراكم ماتحبّون : من بعد الّذى أراكم الله أيّها المؤمنون بمحمّد من النّصر والظّفر بالمشركين (٥)

منكم من يريد الدّنيا : الذين أرادوا الغنيمةَ وتركوا مقعدهم الّذى أقعدهم فيه رسول الله ﷺ فى الشّعب من أحد لخيل المشركين ولحقوا بمعسكر المسلمين طلب النّهب إذ رأوا هزيمة المشركين (٦)

ومنكم من يريد الآخرة : الّذين قالوا نطيع رسول الله ﷺ ونثبت مكاننا (٧)

ثم صرفكم عنهم : ردّ وجوهكم عنهم لمعصيتكم أمر رسولى ومخالفتكم طاعته وإيثاركم الدّنيا على الآخرة عقوبةً لكم على مافعلتم (٨)

ليبتليكم : ليختبركم فيتميّز المنافق منكم من المخلص الصّادق فى إيمانه منكم (٩)

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد صدق المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وعده إيّاهم بالنّصر على المشركين وذلك على لسان رسول الله ﷺ بقوله للرّماة فى أحد :

(١) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٤) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٦) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤ ، ٨٥
(٧) تفسير الطّبريّ ٨٤/٤
(٨) تفسير الطّبريّ ٨٦/٤
(٩) تفسير الطّبريّ ٨٦/٤

اثبتوا مكانكم ولاتبرحوا وإن رأيتمونا قد هزمناهم فإنّا لن نزال غالبين ماثبتّم مكانكم. وكان وعدهم رسول الله ﷺ النّصر يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره (١) وقد أمّر النّبيّ ﷺ على الخيل الزّبير بن العوّام ومعه يومئذٍ المقداد بن الأسود الكندى، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل فبعث رسول الله ﷺ الزّبير وقال: استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه حتّى أوذنك وأمر بخيلٍ أخرى فكانوا من جانبٍ آخر فقال: لا تبرحوا حتّى أوذنكم وأقبل أبوسفيان يحمل اللات والعزّى فأرسل النّبيّ ﷺ إلى الزّبير أن يحمل فحمل على خالد بن الوليد فهزمه ومن معه كما قال: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبّون، وأنّ الله وعد المؤمنين أن ينصرهم وأنه معهم (٣)وكان خالد قد أبصر المشركين ينهزمون أمام المسلمين فقد: «شدّ الزّبير بن العوّام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النّبيّ ﷺ وأصحابه فهزموا أباسفيان. فلمّا رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة فانقمع» (٣): «ودنا بعضهم من بعض واقتتلوا حتّى حميت الحرب. وقاتل أبودجانة حتّى أمعن فى النّاس، وحمزة بن عبدالمطّلب وعليّ بن أبي طالب فى رجالٍ من المسلمين فأنزل الله عز وجلّ نصره وصدقهم وعده فحسّوهم بالسّيوف حتّى كشفوهم وكانت الهزيمة لاشكّ فيها» (٤): «قال الزّبير: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند ابنة عتبة وصواحبها مشمّراتٍ هوازم مادون إحداهنّ قليلٌ ولا كثير إذ مالت الرّماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النّهب وخلّوا ظهورنا للخيل فأتينا من أدبارنا وصرخ صارخٌ ألا إنّ محمّداً قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن هزمنا أصحاب اللّواء حتّى مايدنو منه أحدٌ من القوم» (٥)

وإذا كان المسلمون قد انتصروا فى أوّل المعركة بإذنه عزّ وجلّ لتحقيق المسلمين بعون الله تعالى شروط النّصر ومن أهمّها شرط الطّاعة، فإنّ المسلمين قد انهزموا فى نهاية المعركة بإذنه عزّ وجلّ أيضاً لإخلال المسلمين ببعض شروط النّصر وارتكابهم بعض الأخطاء الّتى تسبب الهزيمة ومن أهمّها العصيان. وقد أشارت الآية الكريمة الى بعض أسباب الهزيمة الّتى تندرج كلّها تحت العصيان. لقد انهزم المسلمون لأنّهم تنازعوا فى الأمر ولأنّ الرّماة اختلفوا فيما بينهم تجاه أمره ﷺ بالثّبات فى أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة، وقد وعدهم

(١) تفسير الطّبريّ ٨١/٤
(٢) أنظر تفسير الطّبريّ ٨٢/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٢/٤
(٤) تفسير الطّبريّ ٨٣/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ٨٣/٤

بالنّصر ماداموا ثابتين فى أماكنهم ، وقد ثبت من الرّماة فى أماكنهم الّذين أرادوا الآخرة وثواب الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ومن هؤلاء أمير الرّماة عبدالله بن جبير أخو بنى عمرو ابن عوف (١) وفريق من صحبه الكرام . بينما ترك الّذين أرادوا الدّنيا أماكنهم حرصاً على الغنيمة وكانوا أمام خالد بن الوليد الّذى أدرك قلّة الرّماة فالتفّ بخيله من ورائهم وقاوموه واستشهدوا وانضمّ إلى خالد المشركون وتحوّل نصر المؤمنين إلى هزيمة بسبب فشل المؤمنين بمعنى جبنهم وضعفهم ، وتنازعهم فى الأمر بمعنى اختلافهم فى أمر الرّسول لهم بلزوم أماكنهم ، وعصيانهم بمعنى مخالفة فريقٍ من الرّماة أمر الرّسول ﷺ . وحدثت الهزيمة بعد أن أرى الله سبحانه وتعالى المؤمنين النّصر الّذى يحبّون .

وقد بيّنت الآية الكريمة أنّ من المؤمنين من يريد الدّنيا وهم الّذين تركوا أماكنهم من أجل الغنيمة ومن المؤمنين من يريد الآخرة وهم الّذين بقوا فى أماكنهم وثبتوا حتّى استشهدوا . قال عبدالله بن مسعود : ماكنت أظنّ فى أصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ أحداً يريد الدّنيا حتى قال الله ما قال (٢)

وصرف الله سبحانه وتعالى أوجه المؤمنين وأيديهم عن المشركين وذلك معناه صرف أوجه المشركين وأيديهم إلى المؤمنين ليبتلى جلّ وعلا المؤمنين ويختبر صبرهم ويعلم المؤمنين من غيرهم ويميز الخبيث من الطّيب .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد عفا عن المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم فى أحد ولم يستأصل جلّ وعلا شأفتهم بل أبقى من أبقى منهم بقيادة المصطفى ﷺ كي يصل الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده حيث وصل اللّيل والنّهار . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله ذو فضلٍ على المؤمنين بتأييده ونصره وعفوه ومغفرته .

(١) تفسير الطّبريّ ٨٣/٤
(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٨٦/٤

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

إذ تصعدون : يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولقد عفا عنكم أيّها المؤمنون إذ لم يستأصلكم إهلاكاً منه جمعكم بذنوبكم وهربكم إذ تصعدون ولا تلوون على أحد (١)الصّاد والعين الدّال أصلٌ صحيحٌ يدلّ على ارتفاعٍ ومشقّة ، من ذلك الصّعود خلاف الحدور . ويقال : صَعِد يَصْعَد . والإصعاد مقابلة الحدور من مكانٍ أرفع . والصَّعود : العقبة الكئود والمشقّة من الأمر . قال الله تعالى : سأرهِقُه صَعودا (٢) وهكذا يتبيّن أنّ الأصل فى استعمال مثل : تصعدون مراعاة الصّعود والارتقاء . ولكنّ هذه المرحلة المبكّرة لاستعمال مثل هذه الجملة تلتها مرحلةٌ أخرى لم تُرَاعَ فى الاستعمال صفةُ الصّعود تلك . وقد قال الرّاغب فى هذا الشّأن (٣) : «الصُّعود : الذّهاب فى المكان العالى ..... وأمّا الإصعاد فقد قيل هو الإبعاد فى الأرض سواءٌ كان ذلك فى صُعودٍ أو حُدور ، وأصله من الصّعود وهو الذّهاب إلى الأمكنة المرتفعة كالخروج من البصرة إلى نجد وإلى الحجاز ، ثمّ استُعْمِل فى الإبعاد وإن لم يكن فيه اعتبار الصّعود كقولهم : تعال ، فإنّه فى الأصل دعاءٌ إلى العلوّ ، صار أمراً بالمجىء سواءٌ كان إلى أعلى أو إلى أسفل قال . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد» وهذا المعنى هو الّذى قرّره الإمام العلّامة المفسّر اللّغويّ ابن جرير الطّبريّ وممّا قال رحمه الله تعالى رحمةً واسعة (٤) : «فأمّا الّذين قرأوا تُصْعِدون بضمّ التّاء وكسر العين فإنّهم وجّهوا معنى ذلك إلى أنّ القوم حين انهزموا عن عدوّهم أخذوا فى الوادى هاربين وذكروا أنّ ذلك من قراءة أبيّ : إذ تصعدون فى الوادى» وممّا قال أيضاً (٥) : «....عن هارون قالوا : الهرب فى مستوى الأرض وبطون الأودية والشّعاب إصعاد لاصعود . قالوا : وإنّما يكون الصّعود على الجبال والسّلاليم والدّرج لأنّ معنى الصّعود الارتقاء والارتفاع على الشّىء علوّاً قالوا : فأمّا الأخذ فى مستوى الأرض والهبوط فإنّما هو إصعادٌ كما يقال : أصعدنا من مكّة

(١) تفسير الطّبريّ ٨٧/٤
(٢) معجم مقاييس اللّغة (صعد) ٢٨٧/٣
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٢٨١
(٤) تفسير الطّبريّ ٨٧/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ٨٧/٤

إذا ابتدأت فى السّفر منها والخروج ، وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان بمعنى خرجنا منها سفراً إليها وابتدأنا منها الخروج إليها . قالوا : وإنّما جاء تأويل أكثر أهل التّأويل بأنّ القوم أخذوا عند انهزامهم عن عدوّهم فى بطن الوادى»

ولا تلوون على أحد : ولا تعطفون على أحدٍ منكم ولا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً من عدوّكم مصعدين فى الوادى (١)

والرّسول يدعوكم فى أخراكم : يناديكم من خلفكم إليّ عباد الله إليّ عباد الله (٢)

فأثابكم : فجازاكم (٣)

غمّاً بغمّ : غمّاً على غمّ (٤) والمراد بالغمّ (٥) : «غمّ ظنّكم أنّ نبيّكم ﷺ قد قتل وميل العدوّ عليكم بعد فلولكم منهم»

تبيّنّا العلاقة بين هذه الآية الكريمة وبين سابقتها إذ المعنى ولقد عفا عنكم أيّها المؤمنون إذ لم يستأصلكم ربّكم عزّ وجلّ إذ تصعدون هاربين فى كلّ اتّجاه وتندفعون فارّين أمام المشركين فى بطن الوادى وفى الجبل حتّى انتهى الفرار ببعضكم إلى المدينة المنوّرة ، وتنطلقون مسرعين حريصين على النّجاة بأنفسكم لا تعطفون على أحدٍ منكم ولا تهتمّون له ولا تأبهون به ولا يلتفت بعضكم إلى بعض بينما رسول الله ﷺ ، بطل الأبطال ، يدعوكم فى أخراكم ويناديكم من خلفكم : إليّ عباد الله إليّ عباد الله . عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أفرد يوم أحدٍ فى سبعةٍ من الأنصار واثنين من قريش ، فلمّا أرهقوه قال : من يردّهم عنّا وله الجنّة .أو هو رفيقى فى الجنّة،فتقدّم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتّى قتل ، ثمّ أرهقوه أيضاً فقال : من يردّهم عنّا وله الجنّة . فتقدّم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتّى قُتِل فلم يزل كذلك حتّى قتل السّبعة . فقال رسول الله ﷺ : ماأنصفنا أصحابنا . رواه

(١) تفسير الطّبريّ ٨٨/٤
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٨/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٨/٤
(٤) تفسير الطّبريّ ٨٨/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ٩١/٤